

**عززي الله**  
**رحلتي من الإيمان الى الشك**

**مواطن مجهول**

**www.amazon.com**

**2017**

الناشر

مركز القانون العربي والإسلامي

Centre de droit arabe et musulman

Ochettaz 17, Ch-1025 St-Sulpice

Tél. fixe: 0041 [0]21 6916585 Tél. portable: 0041 [0]78 9246196

Site: [www.sami-aldeeb.com](http://www.sami-aldeeb.com) - Email: [sami.aldeeb@yahoo.fr](mailto:sami.aldeeb@yahoo.fr)

© Tous droits réservés

## الفهرس

5	..... كلمة الناشر
7	..... مقدمة
13	..... القرآن
19	..... الأخرة
23	..... المرأة والدين
29	..... نظرية التطور
35	..... أسئلة حائرة
41	..... الصلاة
45	..... أنا والمجتمع
51	..... الخاتمة



## كلمة الناشر

هذه رسائل موجهة الى الله وصلتني من مواطن مجهول،  
لا يريد ان يكشف عن هويته، يعرفني ولا اعرفه،  
يتحدث فيها عن رحلته من الإيمان إلى الشك.  
صاغها بصراحة غير معهودة،  
يُنَاجِي فيها ربه ويحكي له عن تجربته الشخصية مع دينه،  
يعبر فيها عن ما يدور بخاطره مما لم يسمح له مجتمعه بسماعه  
فضلا عن البوح به.  
بعثها لي كي أوصلها إلى الله ... الذي لا اعرف عنوانه.  
هل بلغت؟ اللهم فأشهد.



## مقدمة

ملاحظة: عزيزي القارئ .. لو غيرت عزيزي الله في ثنايا هذا الكتاب الى عزيزي بابا نويل لما تغير شيء من محتوى كتابي هذا.

عزيزي الله،

هذا هو كتابي اليك، أكتبه مباشرة من دون وسيط أو ترجمان كما طلبت منا حين نتواصل معك .. أعرف أن الكثير سيغضب لأنني سأكتب اليك، يريدون مني أن أصدق بالكتاب الذي أرسلته لنا لكنهم يرفضون أن أرد عليه. أتقبل بذلك يا الله .. أيرضيك أن ترسل لي كتابا ولا تقبل أن أرد عليه؟ لا أظن، كيف وأنت الذي تنزل من السماء كل ليلة لترى من يسألك فتعطيه ومن يدعوك فتجيبه ... ألا يسعك أن تقرأ ردي على كتابك؟ يقولون وما الحاجة لذلك أصلا، فأنت تقرأ ما أريد حتى وقبل أن أفكر بما أريد .. حسناً، لكنك اخترت أن ترسل لنا كتابا كي نقرأه ولم تُلّفه في قلوبنا مع أنك قادر على ذلك وأنا أفعل الشيء نفسه، ليس لأنني قادر على أن أفعل أكثر من ذلك فحدّي هو الكتابة ولا أملك أكثر من ذلك .. لا أحسبك يا رب تمنع أن أرد على كتابك الذي أرسلت. لكن ما لهم وما لنا فهذا كتابي لك، هو شأن خاص بيني وبينك، يمكنهم أن يُعرضوا عنه أو يطلعوا عليه فليس بيني وبينك أسرار، يا عالم الأسرار، أخل من سردها أو حجبها عنك. أعرف أن البعض سيقول ما دام أنه شأن خاص فلم تعرضه على العامة، وأقول أنه ليس لدي مانع وأعرف يا رب أنه ليس لديك مانع كما أن ناشر كتابي هذا ليس لديه مانع أيضا من نشر رسالتي لك .. ثم أنك لست مُلكا لأحد كي يستأثر به ويدعيه لنفسه. هو كتاب مفتوح مثلما أن كتابك مفتوح للجميع.

عزيزي الله،

أرجو أن تسمح لي في بداية حديثي هذا بمناداتك باسمك الذي أعرفه والذي عزّفت نفسك به من دون كلفة أو رسميات .. أيضايقك أن أناديك هكذا من دون تكلف أو اصطناع؟ أتزعجك كلمة عزيزي حين أخطبك مباشرة من دون وسطاء، هل تتحسس منها وتريدني أن أغيرها مثلا الى حبيبي أو صديقي أو ربما سيدي أو مولاي أو ذو الجلالة كما اعتاد أتباعك وألّفوا؟ هل اختيار المفردة في طريقة حديثي ستغيّر من تواصلتي معك .. وهل الطريقة التي أناديك بها ستؤثر في قبولك بي؟ أرجو أن لا يكون الأمر كذلك. .. لنسقط الكلفة بيننا وندع الرسميات حتى ولو غضب أتباعك فالحديث بين المحبين أجمل وأصدق حين يكون عفويا وبعيدا عن التزلف والمثاليات. وُلدت كخيري في بيئة متدينة لعائلة محافظة في الدولة التي استمدت شرعيتها بالدفاع عنك واتخذت من كتابك ناموسا كما تزعم، تقتدي به كما تدعي وتلزم من يقيم على ترابها بتابعه دون أن تستشير أحدا منهم في ذلك .. ملكها يسمى نفسه بخادم بيتك ويرعى مصالحك كما يقول ويتخذ من أتباعك موقعين عنك لتفسير كتابك للناس وشرح كلامه وبيان معناه. نشأت في كنف دولتك التي تكفلت بحماية أصولك وممتلكاتك الفكرية وتشبعت بالحديث عنك وحوالك .. هذا باختصار من أكون ومن أي طائفة ودين هو لك أنتمي له.

بدأت معي بذرة التساؤل عنك في سن مبكر .. أذكر حينها كنت أدرس في الصفوف الأولى حيث كان معلم التوحيد يتحدث عنك ومن تكون وأين تكون وأنه ليس كمثلك شيء وكيف أنشأتنا من لا شيء، وعن تصميمك الهندسي الضخم ببنااتك الفخم لملكوت السموات والأرض في ستة أيام، ستة أيام فقط لا غير .. يكررها علينا في كل درس من كل اسبوع ومن كل شهر حتى نحفظها عن ظهر قلب والويل لمن ينسى حفظه. أصدقك القول أنني لم أهتم كثيرا بما كان يقوله لنا عنك حينذاك .. كنت بعيدا عني بالرغم من تأكيدك بأنك أقرب لنا من حبل الوريد وأنتك تسمع كلامنا وشوشاتنا وهمساتنا وما يخطر ببالنا قبل أن نلفظ به، بل وقبل أن يخطر بنا .. لم يفهم عقلي الطري آنذاك -وحتى الآن- كيف يمكن لأحد أن يعرف ما يخطر ببالي قبل أن يكون خاطرا. اعدزني لقول ذلك لكنني لم أهتم كثيرا بك ولم ألق لك بالا فقد كنت أنتظر سماع صوت الجرس معلنا نهاية الحصاة فكما تعلم جيدا أن مدارسنا بيئة طاردة لا تجذب الصغار لها فضلا عن الكبار. أرجو أن لا تنزعج حين أقول أن حصص التاريخ والجغرافيا كانت أكثر تشويقا وواقعية من مادة التوحيد التي وضعها أحد أبنااتك المخلصين من أجلك كي نتعرف عليك وعلى عالم الغيب الذي تتخيله ونحلم به بينما بقية المواد وضعها أبناء الطبيعة من أجلنا نحن البشر، كي نتعرف على بعضنا البعض وعلى عالم الشهادة الذي نعيشه ونحسه .. على الأقل، كان هناك قصص أكثر واقعية وأحرى أن أصدقها من تلك التي يحكيها عنك معلم التوحيد، بالرغم من جبروت بعض الشخصيات التاريخية وتسلطها إلا أن أي منها لم يكن يعرف ما يخطر ببالي.

آه، نسيت أن أخبرك عن أول تساؤل لي عنك .. أذكر جيدا معلم التوحيد حين يأتي على ذكر قدرتك الفائقة في الخلق والرزق يدلل على ذلك بققرة من كتابك. نعم، لا أنسى حين يُتبع حديثه بـ "والدليل قوله تعالى" ثم يستحضر جملة كريمة من كلامك "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام". لا أكتفك القول أنه وبالرغم من صغر سني في ذلك الوقت إلا أنه لم يفتني حينها أن أتساءل كيف أستدل على وجود شيء ما بحديث ذلك الشيء عن نفسه في كتاب منسوب له؟ لو صدقت أساسا بكتاب ذلك الشيء وأنه منه وبما يقوله عن نفسه لما احتجت الى دليل على وجوده. أرايت يا الله كيف يُبرهن على وجودك من كتاب يحتاج هو أصلا الى برهان .. ربما هي واحدة مما يسمى اليوم بالمغالطات المنطقية، على أية حال تلك كانت أول بذرة سألت عقلي فيها عنك واحترت فيك ثم تركزت التساؤل بعدها لوقت طويل، طويل جدا.

لا أدري من اختار لك هذا الاسم الرباني .. الرب؟ أشدّ على يد من اختار تلك الكلمة لك فقد كان يعي ما يصنع جيدا. لاسمك أثرٌ عليّ وعلى أصحابي الصغار، فضلا عن الكبار، فهناك جرس غريب في موسيقى تلك الكلمة لا يخفى على السامع. هي ليست كالله التي لا يستخدمها سواك بل رب .. نعم، رب، هكذا حرفين صغيرين يمكن أن يستخدمها غيرك ليدل على ملكيته وحوزه لمتاع ما، لكن حين تتسمّى بها أنت وتدعو نفسك بها يصبح وقعها على الأذن مجلجل رنان، كصوت جوقة موسيقية في عزف سيمفوني بمسرح اغريقي. تحوى تلك المفردة من الفخامة والأبهة والعظمة ما لا تحويه غيرها من الكلمات .. انظر كيف نضيفها لغيرها ونصنع منها عوالم تليق بعظمتك وكبرياتك كرب الأرباب أو رب العالمين أو رب المشرقين ورب المغربيين، حين تسمع تلك الكلمة تحس بالاحتواء والسيطرة، الجبروت والعظمة، الرعاية والعناية .. كل ذلك في أن واحد.

يتردد على مسامعنا اسمك وتنبس الشفاه بذكرك وتهفو القلوب صوبك، أجدك في كل مكان وفي كل زمان، في لوعات المفارقين وآلام المكلمين، في أهات المحبين وخفرات العاشقين وفي زفرات المرضى وأنات المحمومين، في صياح الصغير ونداء الكبير، في عيون الأمهات وارتعاش العجائز. بالبيت هناك من يلحف باسمك وفي المسجد من يستشهد بجلال قدرك وفي المتجر من يطلب من فيض نعمك وفي المشفى من يرجو لطفك وعافيتك. أول الحروف والكلمات التي تعلمتها هي من كتابك وأول



صف اصطفتته كان صلاة لك .. تعلمنا عنك الكثير في صغرنا، عن اسمائك وصفاتك وعن أنواع توحيدك وعن ربوبيتك وألوهيتك، تعلمنا الكثير عنك ولم نعلم شيئا عنك فأنت ليس كمثلك شيء. هكذا قيل لنا فأنت الواحد الذي ليس له ثان، أنت الأول والآخر، الظاهر والباطن .. مفردات والفاظ حفظتها عنك من أول وهلة لظراوتها وسهولة حفظها اللي تصلح للإشاد والترتيل وحتى الغناء. أول حروف وأول كلمات تعلمتها هي من قصار السور بكتابك .. أتدري أنه أحيانا أظن أنني أعرف عنك أكثر مما تعرفه أنت عن نفسك، أيمكن ذلك يا الله .. سأشرح ما أعنيه لاحقا لكن الآن أرجو أن تبقى معي ويتسع فسيح لطفك لمناجاتي فأنت الذي يُمهّل ولا يُهمل، أما الأولى فيشارك فيها معك كل مختفٍ عن الأنظار وخاملٍ عن الأفعال وأما الأخرى فهي التي عليها الكلام ومحور هذا الكتاب مني لك.

عزيزي الله،

عشت خمسون سنة من عمري لا يفوتني فيها صلاة مكتوبة قيل لي أنها فريضة، أتيت اليك مشيا على أمل أن تأتي لي مهرولا، تقربت لك بالنوافل على أمل أن تقرب مني بحبك لي وتفيض علي من نور سناك، عسى أن تصيح سمعي الذي أسمع به وبصري الذي أبصر به ويدي التي أبطش بها ورجلي التي أمشي بها. يآه .. لو أنّ يدك هي يدي وعينك هي عيني، تصوّر كمّ من الفرص التي يمكن أن أقتنصها والأحوال التي سأعيشها بيد رب وعين اله، وكيف ستكون الحياة التي أنت امتداد لها عبر كياني الضعيف. ناجيتك بالليل وطرفي النهار .. لم أتوقف لحظة وأنا أقف بين يديك لأسأل نفسي عنك. من تكون وماذا تكون وكيف تكون، من ذا الذي أحني رأسي في حضوره وأمرغ جبهتي في الأرض من أجله وأتذلل خوفا منه وطمعاً في رجاه؟ أنت مرعبٌ ومخيف لهذه الدرجة يا الله .. هل تتلذذ ونحن نرتعش خوفا منك؟ هل تجد متعة في سجودنا لك؟ ما الذي تشعر به بالضبط حين أتلو بعضاً من آياتك أو أتني ركبي راكعا في محرابك مسبّحاً باسمك .. هل تحس بشيء ما .. أي شيء؟ ألك قلب ينبض مثلما لك يد وعين كما ينقل عنك رجالك؟ أيجري الدم في عروقك .. إن كان لك دم وعروق؟

أتعرف أنني في صغري كنت أظن سجودنا يزيدك قوة وأنه كلما زاد عدد الساجدين ازدادت طاقة وكأننا نشحن بطارية ضخمة موصولة بك وأن دعائنا يمنحك توهجا وضياء فوق ما أنت فيه وكأنك في حاجة لزيادة عدد أتباعك لتبقى مضيئا متلألاً فكلما قل عدد مرديدك كلما كان هناك خطر عليك أن تتطفئ مصابيحك وتفرغ بطاريتك. كبرت قليلا ثم نسيت، حتى تذكرت تلك الفكرة الغريبة حين بدأت أسمع وأرى من يتحدث دفاعا عنك وعن دينك ويطلب النصرة لك، عادت لي تلك الفكرة القديمة. أحتاج لمن يدافع عنك يا رب ويقف في صفك؟ هل أنت في حاجة لجنود من خلقك لشحن بطارياتك وإضاءة مصابيحك .. أتخشى أن تتطفئ الكهرباء عنك حين يتوقف الناس عن السجود لك؟ أنظر اليوم لتجد الكثير في عالمنا ممن يقف مدافعا عنك ومقاتلا في سبيلك ورافعا رايتك ليموت تحتها، تسيل الدماء أنهارا دفاعا عن حماك وذودا عن حياضك .. كيف يكون ذلك يا رب وأنت الذي لا تحتاج لغيرك؟ كيف يصطف أتباعك دفاعا عنك وأنت ذو الجبروت والملكوت .. أنت القوي العزيز ونحن الضعفاء؟ أنهيت مراحل الدراسة الأولى وبقيت يا رب في مكانك العلي، كنت كغيري أهدتك في صلاتي ودعائي من دون أن أقرب منك ومن يُطبق الاقتراب منك وقد جعلت الجبل دكا حين تجليت بعد أن طلب أحدهم النظر اليك. لم أهتم كثيرا بكونك البعيد عنا والقريب منا فأنت فوق ونحن تحت، أجزّ قديمي الى باب بيتك وأطأ رأسي عند محرابك .. أشاهد أبي يغسل أطرافه كل يوم في حر الصيف وبرد الشتاء ليتجه الى بيتك ويقدم فروض الطاعة بين يديك. لم يكن يجرنى معه أو حتى يناديني لمشاركته .. كان وفيك لك من دون أن يُجبر أحدا غيره على الولوج الى باب طاعتك. لم يكن الحال كذلك مع أمي التي لم تترك فرصة حين تسمع صوت المؤذن دون أن تنهال علي بسوط الترهيب بعد أن نفذ منها جزر الترهيب، تأمرني بالاغتسال والتوجه الى بيتك .. لا أنس حديثها مرّة لي بعد أن أصبحت يافعا

في رمضان وقد نمت عن الصلاة لك. تُخوفني بمصير المتأخرين عن حضور بيتك وتشعرنني بالذنب لتخلفي عن حضور الصلاة في محرابك، ملقبة اللوم على رفيقي الجديد في سكني بالجامعة. لا ألومها يا رب في وفائها لك فهي الأخرى تم برمجتها في صغرها على الامتثال لك من دون التفكير فيك.

بدأت شخصيتي المستقلة تتبلور وتتضح أثناء دراستي الجامعية والتي أحسست فيها ببعض الراحة لانفصالي عن بيتي الصغير وبداية تعرفي على بيتك الكبير .. على العالم الطبيعي عبر العلوم الحديثة القائمة على المنهج العلمي. أنت تعرف جيدا أن نظامنا التعليمي العام هو من أجلك ولك، ومن أعظم أهدافه تقييدنا بدينك وعرس أفكار أتباعك في صفحات عقولنا الصغيرة وسلبنا من أي نزعة للتفكير الحر وأي محاولة للنقد، والاكتفاء بالنقل والتلقين، فما ترك الأولون للأخريين شيئا ثم بدأت أعني نفسي في الجامعة بشكل آخر لم أعده من قبل. تعلمت علوما من غير صنف قال الله وقال أتباعك، علوما تفترض الجهل ابتداء بدلا من العلم، وتثير الأسئلة بدلا من صك الإجابات وتتطلق من الشك قبل اليقين. تُخضع المسائل للتجربة وتُنشئ الفرضيات وتلاحظ ما يدور في الطبيعة بحثا عن المعرفة وتصحح ما سبقها وتعديل فيه وتضيف عليه .. ليس هناك من مقدس أو منزه، محراب العلم هو مختبر العالم ونظرياته وكراريسه، يثير بها الأسئلة فإثارة الأسئلة تعني الحياة أما الأجوبة فهي النهاية. عندما لا يبقى شيء وتفرغ الرؤوس من التفكير تحل محلها الإجابات .. رجالك يهتمون بالأجوبة كثيرا على حساب السؤال وراثهم ملئ بذلك فهناك الأجوبة العرقية على الأسئلة اللاهوتية، الأجوبة العثمانية على الأسئلة الليبية، الأجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية، الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الأجوبة الألبانية على الأسئلة الاسترالية وطبعا هناك الأجوبة المسكنة .. في سلسلة لا تنتهي من إجابات جاهزة قاطعة بل ومُسكنة لا تحتاج معها الى ما بعدها .. بينما العلم طريقه إثارة الأسئلة.

لم يتركني أتباعك في دراستي الجامعية والتي كانت بالفعل تطورا نوعيا في طريقة تفكيري ونظرتي للعالم من حولي إذ بدأت معها في التعرف على العلوم الحديثة .. أقول ذلك الآن والإفاني وقتها لم أع ذاك التحول في شخصيتي، لكن رجالك كانوا واعين لخطر ذلك التحول في شخصية الشاب على دينك وهم أذكي من أن يتركوا خلقك ممن بدأ في الانفتاح على طرق التفكير السليم والانعتاق من طرق التلقين القديم بحال سبيلهم فيسعون للوصول لهم عن طريق تجبير ما تكشفه العلوم لصالحهم. يُسمون ذلك إعجازا علميا وكان كتابك قد أصبح بعد قرون من صدوره دليلا من دهاليز المختبرات وكزاسا من أوراق المعامل. ليس لهم شغل سوى الانتظار والترقب لما يكشفه العلم ثم ينسبون ذلك لكتابك ويجترّونه جرّا من آياتك خشية أن يفتتن الشباب بسلطة العلم وحلاوة المعرفة وشهوة الاكتشاف .. بل إن هناك من اتخذ الهدنة معك بعد أن ساوره القلق مما يمكن أن يكشف عنه العلم وأعلن أن العلم والدين صنفان متوازنان ولا يجتمعان.

أتخشى يا رب من العلم وأنه قد يسحب البساط من تحت قدميك؟ أيشكل لك منافسة قد يزول معها سلطتك ويخفت بها صيتك؟ كيف تخشاه مع أنه لم يدع يوما أنه ينافسك أو يريد أن يحل محلك ويجلس على عرشك، هو يشق طريقه بهدوء ويرفع سراجة منيرا ليُخرج الناس من الظلمات الى النور. عاش خلقك في ظلام دامس منذ ظهور الأديان التي استطاعت أن تسيطر على عقول الناس وتتحدث عنك موقّعة باسمك، أنت رب العالمين، حتى بدأت شعلة الثورة العلمية تظهر قبل خمس قرون تقريبا. هل اهتز عرشك اليوم وأنت ترى الظلمات تنحسر شيئا فشيئا أم أنك ضامن موقعك لأن الإنسان محكوم عليه بالضعف مهما بلغ من علم، وبالتالي فهو في نهاية المطاف سيلجأ لك ليغطي نقصه في كل حال .. أنت يا إله الناقصين والضعفاء.

اختلط الأمر على كثير من أتباعك لا سيما في النصف قرن الماضي مع سرعة تواتر ما يكشفه العلم وما تُلقَى به معامله ومختبراته من تكنولوجيا أفادت البشرية وزادت في معدل عمر الإنسان وقضت

على كثير من الأمراض وقربت البعيد حتى إنَّ سدنة ما يسمى بإعجاز كتابك العلمي لم يعودوا مقبولين إلا عند السدج من الناس، أما البقية فلم يبق لهم الا أن ينضموا الى مدرسة المعتذرين الذين يحاولون التوفيق بين ما يقوله أتباعك وما تقذف به مختبرات العلم الحديث وما أحسبه الا تليفقا وليس توفيقا .. أول ما سمعت هذه الكلمة في صفوف التعليم الأولى. كيف نوفق بين آية هنا وآية هناك من كتابك؟ لم يكن حينها موائمة مع ما أنتجه العلم بل موائمة للكلام نفسه، بين سورة وأخرى أو مقطع وآخر في إشارة الى التناقض بين شيتين أو ما يبدوا تناقضا كما قبل لنا .. كلام البشر يطراً عليه العيوب والنقصان لكن كلام رب البشر، كيف لا يكون كاملاً؟ لم أفهم الحاجة الى التوفيق والترقيع ما دام القائل هو رب الكلام .. أتغير كلامك يا رب وتحتاج الى ناسخ ومنسوخ ليعدل من حديثك؟ أتقول شيئاً ثم تنسى لتأتي بما يبدو مخالفاً له .. أيطراً عليك النسيان يا من لا يضل ولا ينسى؟

أتباعك يقولون أنك تنسخ ما قلت من أجلنا وتستعمل التدرج لراحتنا، مثل الطبيب الذي يصف جرعة من الدواء ثم لا يلبث لاحقاً أن يزيد أو ينقص منها تبعاً لحالة مريضه. لكنك أنت الله ولست أحداً منا، ألا يمكنك أن تفعل أفضل من ذلك .. وتأتي بكلام أكثر كمالاً وأفضل سبكا مما بعثت؟ كتب البشر، كل الكتب، تشترك في كون القارئ، أي قارئ، ينتهي من قراءتها ويبقى في باله شيء بعد قراءتها يستطيع أن يقترحه على الكاتب .. كان يمكن إضافة شيء هنا أو هناك أو تعديل هذا أو ذلك، أو أن هنا ما يحتاج الى تبسيط وهناك ما هو بسيط، ولا أجد كتابك يخرج عن هذا. دع عنك ما يقوله الناس فإنما هم يرددون ما يقوله لهم غيرهم .. كتابك من المطولات ولا أحب الكتب المطولة، سوره متفاوتة، منها الطوال ومنها المئون ومنها ما دون ذلك من المثاني والمفصل. لو أنك اختصرته أو أضفت له ملحفاً قصيراً تضع فيه لب رسالتك وما تود أن تقوله بإيجاز. ثم أين التواريخ في كتابك يا رب؟ تركت شيئاً من أهم الأشياء التي نحتاجها حين نقرأ، إذ فقدنا الإطار الزمني لكل المرويات. قصص عظيمة لا نعرف أين تقع في خط الزمن .. أيرضيك هذا، تتركنا من دون معرفة لها؟ في كتب البشر يُسندون الأحداث الى تواريخها لا سيما الهام منها وأنت لم تفعل ذلك .. لم يا رب؟ أكنت غير واثق من تاريخها، أم أنك أصلاً لا تعرف متى حدثت؟

حين أنظر الى اليوم صوري، أندم على تلك الصور القديمة التي أهملت كتابة تاريخها وأتمنى لو عرفت متى التقطت .. خطاباتي أفضل حالاً فكلها مؤرخة بل وحتى الأحداث والمناسبات التي ترد في ثناياها هي الأخرى مؤرخة لكنك تركت هذه المادة الأساسية وأغفلتها من كتابك. لم تخبرنا منذ متى ظهر آدم؟ أهو قبل ألف عام من كتابك أو عشرة الاف أو ربما مائة الف من السنين أو أكثر من ذلك. متى خلقت الأرض ومتى حدث الطوفان ومتى بعثت نوح و ابراهيم والآخرين .. ومتى ومتى، ماذا تفيد الأزمنة التي ذكرتها كالفجر والصبح والضحى والعصر أو الليل والنهار .. أتخشى لو أنك ذكرت تواريخ ثم اكتشفنا اليوم عدم صحتها أن تفقد أتباعك؟ لا أظن ذلك، فهناك المعتذرون الذين سيلقون، أقصد سيوقعون بين ما هو مذكور في نصوص كتابك وما هو مكتشف من صفحات الطبيعة التي لا تكذب .. هل كنت تتوقع ظهور المعتذرين؟ سيزيدون يا رب مع انتشار العلوم وانحسار الجهل بين العامة من الناس مثلما ظهر المعتذرون عند النصارى بعد الثورة العلمية. أصبح دينك اليوم كالإناء المكسور إزاء العلوم الحديثة .. كل يحاول ترقيعه يا رب حتى صار هشاً ينتظر من يلقي عليه بحجارة الرحمة الأخيرة كي يتهشم. لكن لا تخش يا رب من ذلك فسبقى الإناء متماسكا في عقول مربيه لأنهم يخافون عليك يا رب؟ كم أنت محظوظ بهم .. أتدري يا رب أنه مهما كشف العلم من أسرار ونزعه من دائرة الظلام التي نسبها الدين لك ستجد هناك من يفضل التمسك بك لأن هناك دائماً ما هو لغز وطلاسم تنسج حولك والناس تعشق الأحاجي والألغاز يا لغز الألغاز.



## القرآن

عزيزي الله،

كيف يا رب العالمين ويا مالك الأكوان ويا عالم الأسرار ومنشئ الزمان والمكان، يا منشئ السحاب الثقال ورب الرياح والجبال، يا صانع عطارد والمريخ وبقية الكواكب والمجرات، يا خالق السماوات بغير عمد، يا عالما بنواميس الكون واعوجاج الزمن وخفايا الأفلاك وتقويه السوداء، يا باقيا بعد الفناء، كيف يا معلم الإنسان ما لم يعلم، يا من دلّه الى قوانين الطبيعة وهداه الى علوم الأرض وجعله يغوص في المحيطات وينتقل بمركباته بين أجرام السماوات .. كيف ترسل لنا كتابا فيه “جاء أحد منكم من الغائط” .. أو نملة تتحدث مع إنسان أو “فلما قضى زيد منها وطرا” أو “تبت يدا أبي لهب” أو “ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا” .. وفيه جراد وقمل وبعوض وعناكب وذباب .. أيعقل أن يكون هذا هو أسلوبك في الحديث الينا وطريقتك في الكلام معنا؟ إنما هذا أشبه بكلام البشر للبشر، بل إنّ هناك الكثير من كلام البشر ما هو أفضل وأحسن من هذا بمراحل. أليس هناك أفضل مما خاطبتنا به ثم إنني لست أفهم ما التحدي الذي تعلنه بأن نأتي بأفضل من ذلك وكأنك أحد من البشر يتفاخر بقوله قصيدة ما ويتحدى غيره أن يأتوا بمثلها. كنت أحسب أنك أجلّ وأعظم من ذلك، ثم هل يسري عليك التحدي وكأنك أحد الشعار يلقي قصيدة في مسابقة ما ليتحدى بها غيره .. ألم يكن من الجلال والسمو أن تبعث كتابك دون الدخول في تحديات ومساجلات، .. حتى الملوك من البشر يترفعون عن الدخول في مهاترات مع العامة حين يخاطبون شعوبهم.

ثم ما لك يا رب وأبا لهب، ولم كل هذا الحقد على الرجل المسكين وامرأته اللذين تركت ملكوتك العظيم لبرهة من أجل أن تضمّنه في كتابك لنا؟ هل ناسك فيما تملك أو أذاك بشيء أو ربما كدر خاطر ك .. أم تراه سائبك فحملت في نفسك ما حملت وأحسست بعقدة من ذلك. أين كن فيكون عنه ولم لم تسلطها عليه بدلا من نشر حبل غسلكم هذا على الملأ، .. سبتي وسببته! ثم لفترض أنه شتمك فعلا، أتقوم أنت رب العالمين بسبه كالصغار عندما يتلاسنون، بل حتى الصغار لا يفعلون ذلك، إنما هم يتخاصمون قليلا ثم يعودون أصدقاء كما كانوا، لا يفعل ذلك الا بذيء الكلام من أصحاب الفاحش من القول .. أيعقل هذا يا رب؟ لو كنت باعث خطابا لأحد من أصحابي وهناك من بيني وبينه خصومة لترفعت عن ذكره في ثنايا كلامي ولا امتنعت عن سبه في كتابي لأنني احترم نفسي كما أحترم وأقدر من أكتب له، حتى ولو كانت نفسي تستعز من الغضب تجاه من آذاني وأبحث عن من أنفس له بمكنون صدري لربما ذكرته في كتابي بدون أن أسميه .. ألا يمكنك أن تكون أفضل من خلقك يا رب؟ بل إن الأمر تعدى ذلك الى درجة أن هناك من أتباعك من يتخذ من سبابك لأبي لهب دليلا يثبت به أنك علام الغيوب، إذ كان بإمكان صاحبك، لو أراد، أن يعود في كلامه ويعتذر منك وبالتالي يبطل حكمك عليه .. ولكنه لم يفعل. ياه، يا لها من طريقة ليبرهن بها على صدق حديث رب الأرباب .. تسب أحدا من فوق عرشك وفي عليائك ثم تنتظر نحن الخلق فإن لم يعد ذاك المسكين ليعتذر فمعنى ذلك أن دينك يا رب قد اجتاز الاختبار وأصبح موضع الثقة عند متلقيه! أتدري يا رب، حتى لو عاد صاحبك عن رأيه وصدق بما تقول فلن يعجزك أن تفرد له آيات أخرى تنسخ بها ما قد وصفته بها وتعيد الأمور الى نصابها.

قيل لنا أن كلامك مُعجز يا رب .. دُبجت الأسطر وألفت الكتب وألقيت الخطب في بيان إعجاز كتابك وآياته ومفرداته ومعانيه وقصصه وحكاياته وكيف أنه خارق للطبيعة، أفنى الكثير أعمارهم في ترديد ذلك .. أترأه أنت كذلك؟ أتصدّق هذا القول عن كتابك وأنه حدث فوق العادة، أم أن هذا من إِدعاء أتباعك؟ ما هو المعجز يا رب في "ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً" أو "فإذا دخلتم بيوتنا فسلموا على أنفسكم" أو "تبت يدا أبي لهب" أو "حم عسق" .. أهنأك شيء مُعجز في ذلك .. أهنأك شيء خارق في الكلام أو في الحروف أو في النغم أو في المعنى أو الصورة، أم أنه كلامك وكفى؟ دع عنك الأفكار التي زُرعت في عقولنا عنه نردها منذ الصغر نقلا عن من سبقنا، وأزل حاجز الخوف من الاضطهاد .. ختمتُ كتابك عشرات وربما مئات المرات، قرأت آياته ورددت كلماته حيناً في بيتي وحيناً في بيتك، في صلاتي لك وفي مدرستي، في الشارع وفي الطريق .. في السيارة والطيارة .. قرأته منفرداً ومع آخرين .. قرأته بأعين دامعة وأخرى جافة، في جوف الليل وفي وسط النهار. يمكنني القول الآن باطمئنان يا رب وبتجرّد، ومن دون خوف أو إكراه وبعد أن مضى من عمري أكثر من ما بقي، يمكنني القول أنني أجدّه كلاماً أفضل ما يقال عنه أن بعضه جميل وبعضه عادي وبعضه أقل من ذلك، منه الغريب ومنه المخيف ومنه المملّ. هو في النهاية مثل كلام البشر، بل إن من كلام البشر ما هو أوضحُ بياناً وأجمل عبارة .. كيف لا، وكتابك قد ألفت حوله المجلدات من كتب التفسير لبيان مقصودك منه.

قالوا أن الكلام شعر ونثر ثم لما نشرت كتابك أضافوا للكلام قرآناً لا هو بالشعر ولا هو بالنثر .. كذلك أيضاً هو الشعر الحديث، فلا هو بالشعر المقفى ولا هو بالنثر. أتدري أي أجد في كلام المعري وشعره غير مجدي في ملتي واعتقادي وما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد .. أجد في ذلك ما هو أمتع قولاً وألطف عبارة وأجزل حديثاً وأعظم بكثير من بعض آياتك .. أحسب أن رُب لحِد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تراحم الأضداد أشدّ وقعا على النفس في الصلاة وأكثر خشوعاً وأتمّ سكوناً من تبت يدا أبي لهب. أتدري يا رب ما يشبه كلامك والجو الذي صنّعه في كتابك .. هو مثل من يعيش في عالم من أفلام الخيال العلمي تنشق فيه الأقمار وتتأجج فيه البحار من الاشتعال ويرى المركبات الفضائية وهي تنقل البشر بين الكواكب والمجرات في دقائق معدودة وتطير بهم الى السماوات العُلى في ثوان قليلة ويشاهد المساكن الغريبة ووسائل النقل العجيبة في عالم من الفانتازيا ثم فجأة يعود الى واقعه .. الى خيمةٍ وماعر ترعى حولها وسط هذا الجو الخيالي، هذا هو جوّك. قرأت كتابك وما هو بالشعر ولا بالنثر بل شيء بين بين .. تلذذت بقراءته أحياناً واستمتعت بسماعه أحياناً لا سيما حين يقرأ منه أحد المقرئين المصريين أمثال عبد الباسط أو المنشاوي .. بعض تعابيره جميلة وبعضها قاسي وبعضها مكرر وبعضها رتيب وبعضها ممل وبعضها عادي. حفظت منه لصلواتي ورددت بعضه في خلواتي زهاء خمسون سنة .. لكني لم أفهم ما المعجز فيه. ما أحسب كلام الناس عنه وتعظيمهم لما فيه إلا ترديد لما تم تلقينهم به. انظر كيف تغتسل استعداداً لقراءته وما يمسه الا المطهرون، هو مثل لوحة علقتها في بيتي ووضعنا عليها غطاءً لا أزيحه ليراها الرائي حتى يغتسل أولاً أو يقلم أظافره ويأخذ شيئاً من شعره ثم أقنعتُ بعض زائري بأنها من رسم علام الغيوب ثم وزعت منها الملايين على أن يلتزم الجميع بنفس الطقوس لكي يروها .. أحسب أن سيكون لها شأن أكبر من لوحات دافنشي مجتمعة.

ثم ما تلك الأحكام التي أطلقها والتشريعات التي سننتها في كتابك لمن اقترف جرماً بحق غيره من جلد وقطع ورجم وقتل .. تقطيع للأيدي وسياط على الظهر وجز للرقاب ورجم بالحجارة حتى الموت ثم يأتي بعد ذلك أتباعك ليقولوا لنا أن هذا من رحمتك بنا وتطهير لنا وأنتك أرحم بالعبء من الأم بولدها! ما نوع الجنون الذي أصاب أتباعك ليحسبوا هذا رحمةً وتطهيراً؟! وأي نوع من المخدر يتناولوه ليشيعوا بأن هذا من لدن حنانك وعطفك؟ أيعقل أن تطلب منا أن نقبّد إنساناً أو ندفنه في الأرض ثم نرديه

بالحجارة لنتهاه عليه الضربات حتى يلفظ أنفاسه ويسيل دمه .. أي نوع من البشاعة والوحشية الهمجية تلك التي يقوم فيها البشر بهذا الصنيع؟ أتدري أنني أشعر بالغثيان الآن من ذكر ذلك بل إنني قد أمضيت أسابيع وشهوراً وأنا صغير لا أستطيع النوم من الكوابيس التي كانت تصيبني حين أتخيل بشاعة هذا المنظر بعد أن لقننا إياه معلم الفقه، لا يمكن أن أتخيل فعل ذلك بقط أو كلب فضلاً عن آدمي .. ولم؟ لأنه نام مع من يحب في فراش واحد وتصادف أن كان مطلقاً أو أرملاً ... اثنان بالغان عاقلان مسالمان، لم يؤذيا أحداً ولم يرفعا سلاحاً ولم يمارسا عنفاً يعيشان لحظة حب في حالهما.. ما لك ولهما؟ يقول المعتذرون عنك أنّ تلك الأحكام إنما تلائم الوقت الذي أرسلت فيه كتابك حيث لا سجون ولا شرطة ولا حكومة مركزية وإنما صحراء مفتوحة ترعى فيها الإبل والدواب طليقة فالحاجة ماسة إلى غلظة العقوبة حتى ولو كان ذلك بقطع يد أحدهم حين يسرق مثلاً ليكون عبرة تزجر بها الآخرين ممن قد تسول أنفسهم التعدي على ملك غيرهم. حسناً، كل ذلك قد تغير اليوم حيث تطورت الحكومات وأصبح هناك سجون ومحاكم بينما بقيت آياتك كما هي .. أليس كتابك الذي أرسلت لنا صالح لكل زمان ومكان كما يقولون؟ إن كان هذا صحيحاً فلم أتباعك اليوم لم يعد يطبقون تلك الأحكام البشعة؟ حتى دولة الحرمين لم تعد تقطع الأيدي وترجم الناس .. لم يعد يفعل ذلك سوى مجانين دولة الخلافة في بلاد الرافدين التي تُوصم بالوحشية مع أنها إنما تطبق كتابك بحذافيره وهي الأقرب لتجسيد آياته ومعايشة رسالته، لأنها لم تعد مقبولة تلك الأحكام التي شرعتها في عصور الظلام قبل ألف وخمسمائة عام ولا تليق بإنسان اليوم .. أصبح البشر اليوم يا رب أكثر إنسانية ورافة ورحمة في أحكامهم منك؟

عزيزي الله،

كيف استطعت أن تجمع بين المتعارضات وترسخ في عقول أتباعك المتباينات ليعوذوا بك منك، أنت غافر الذنب قابل التوب لكنك شديد العقاب. أنت الرحمن الرحيم لكنك الجبار المنتقم، أنت الودود الرؤوف لكنك الرقيب المتكبر، أنت القهار لكنك السلام .. أنت الضار والنافع، الخافض الرافع، أنت الأول والآخر، الظاهر الباطن .. أنت اله المتناقضات. في ثنايا كتابك تقول كلاماً ثم في موقف آخر تقول كلاماً يبدو متناقضاً .. تقول لا مبدل لكلماته وتقول إذا بدلنا آية مكان آية .. تقول عن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وتقول فضرب الرقاب .. تقول لا إكراه في الدين وتقول قاتلوا الذين لا يؤمنون، تقول وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتقول فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم .. تنتقد من يقول بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ثم لا تجد بأساً في أن يتوارث أتباعك ما أنزلت. تجد الكثير من أشباه ذلك منشوراً في كتابك إلى درجة أن قد ألفت الرسائل وصنفت الكتب حول كيفية التوفيق بين ذلك التناقض كله .. فرغث يا رب قبل أيام من قراءة رواية جميلة لم أحتج فيها إلى غيرها ولم أستشر كتاباً أو قاموساً لفهم كلمات مؤلفها ولم أجد تناقضاً بين أحداثها ولم أحتج للسؤال عن مراد الكاتب أو فهم مغزى قصته بينما أنت العليم الحكيم الخبير ترسل كتاباً نحتاج فيه نحن البشر إلى تفسير المتشابه منه وتأويل الغامض فيه والتوفيق بين ما تناقض من أجزائه.

لم لم تكن واضحاً في كتابك الذي أرسلته لنا وضوحاً لا يحتاج معه المتلقي إلى تفسير مرادك منه أو بيان ما هو المقصود وما هو المنسوخ؟ تقول فيه أنه بلسان عربي مبين وأنت قد يسرته للذكر لكن هل هو فعلاً كذلك؟ وإذا كان بيننا فلم يحتاج أتباعك إلى التفاسير وتفسير التفاسير وصفوة التفاسير ولم صنفت الكتب من أجل شرحه وبيان الغرض منه، منها ما هو بالرأي ومنها ما هو بالمأثور. لم وأنت القادر فوق كل شيء بعثت كتاباً يلجأ الناس من أجله إلى صنع فنون ابتدعوها من تفسير وتأويل ومعرفة المحكم والمتشابه وهل هو وقوف على اللفظ والحرف أو اتجاه للأصول والمعاني .. كل هذا لفهم نصوص مكتوبك ومعرفة مرادك. هل تعتمد يا رب أن تكون غير واضح فيما تقول؟ أيسعب عليك وأنت خالق القلم وما يسطرون أن ترسل كتاباً لا ليس فيه ولا غموض لتقطع على دابر القوم أي

فرصة لاستغلال كلامك أو تفسيره حسب أهوائهم أو تكييفه مع مصالحهم. ثم ما دام أنه للبشر كافة، لم استخدمت لغة العرب فقط، حتى ولو كان رسولك عربياً؟ ألم يسعك أن ترسل منه نسخا بلغات العالم وقت نزوله، واحدة باليونانية وأخرى بالصينية وثالثة بالفارسية مثلا .. أليست رسالتك للعالم أجمع؟

يقول أتباعك أن كتابك تشريع رباني فما هو التشريع الذي أنزلته من السماء بالضبط، أهي آيات الأحكام مثلا من أوامر ونواهي كآية حل البيع مثلا؟ أتظن أننا نحتاج لنص الهي منك حتى نبيع ونشتري ونص آخر يخبرنا أن لا نقتل أو نسرق أو نكذب أو يدعونا أن نوثق العقود أو نكتب الديون أو نجتنب كثيرا من الظن. أيعقل أن لا يتوصل البشر الى معرفة هذه الأمور بأنفسهم ويحتاجون الى نصوص الهيئة تهبط عليهم من وراء سبع سماوات؟ أحتاج آية من عندك تقول ولا تجسسوا أو لا تسرفوا أو لا تأكلوا أموال بعضكم بالباطل حتى ننتهي عن ذلك، وهل الأخلاق والسعي للخير وطلب العدل ونبذ الظلم مرتبط بنصوص مقدسة من عندك أم أن هذا مما اتفق البشر عليه، يجمعهم في ذلك العيش المشترك والتواصل الإنساني؟ ما بال أقوام من البشر لا تعرفك وتعرف هذه الأمور وأكثر منها تفصيلا مما لا يخطر على بال من نقل كتابك .. ما هو يارب الشيء الذي تعرفه عنا أكثر منا حين حرمت القتل مثلا؟ أتظن أنني لن أقتل آخر لمجرد أنني قرأت ذلك في كتابك؟ إن أكثر من يقتل بعضهم البعض اليوم في حروب جماعية هم من أتباعك الذين يقرؤون كتابك. ما الذي تعرفه أكثر منا حين طلبت منا أن نوفي بالعهود .. هل أحتاج الى نص كهذا أقرأه في كتابك كي أطبقه حين أبدأ بصياغة عقد عمل مع أحد الموظفين؟ أليست التجربة الإنسانية والعيش المشترك والمنطق والعقل يقودني الى هذا، بل وأكثر من هذا بكثير.

لا أجد يارب في كتابك من الأحكام والأصول العامة التي تنظم علاقة البشر ببعضهم البعض شيئا لا يستطيع أن يهندي له الإنسان العاقل بنفسه، بل إن معرفة الإنسان تعدت تلك الأصول العامة والتي عرفها حتى قبل نشر كتابك. تصوّر طالبا يدرس علوما مالية في الجامعة وبعد تخرجه يلتحق بوظيفة مرموقة في مصرف ليكتشف نظرائه الذين تعلموا مثله أن كل ما لديه ليقدمه لهم إنما هو كلام عام يعرفه الصغير قبل الكبير والعامي قبل المختص كحفظ المال وعدم الإسراف والحاجة لتوثيق العقود وتحريرها .. أتظن أنهم سيجدون كلام صاحبنا هذا مفيدا لهم في تعاملهم اليومي ونشاطهم مع عملائهم أم يحيلونه على الرف منذ أول يوم يكتشفون مبلغ علمه. هناك من سيقول بأن العقل والتجربة الإنسانية لن تدلنا على نوع آخر من الأحكام، تلك المتعلقة بعلاقة البشر بك مثل كيفية الصلاة لك وعدد ركوعها وسجودها وكيف نؤدي زكاة مالنا وكيف نحج لبيتك ونصوم شهرك، لكن هذه كلها ليست من الأمور الأساسية المشتركة بين البشر والتي يحتاجون لها كي يعيشوا في جماعات بسلام، إنما هي طقوس وشعائر خاصة بطائفة دينية محددة كالمسلمين مثلا في هذه الحالة. تصوّر لو أن جمعا خليطا من الناس من مختلف الطوائف والديانات غادروا بلدانهم ووصلوا الى جزيرة وسط البحر ليقيموا عليها موطن لهم .. ما الأمر الذي عليهم أن يتفقوا عليه؟ أهو علاقتهم الحسية ببعضهم البعض أم علاقتهم الغيبية بك أو غيرك مما يتوجهون له من كائنات .. هل الأهم لهم ليتفقوا عليه من أجل أن يعيشوا بسلام ويعمروا جزيرتهم وينشئوا عليها مدنا ومجتمعات هو لا تقتل ولا تسرق ولا تظلم ولا تخن العهد أم هو عدد ركعات صلاتك وكيفية الوضوء والاعتسال وحكم مسح على الخفين؟

قيل لنا أن نتهم عقولنا وتفكيرنا ولا نتهم من ينقل عنك لأنهم صدوقون .. أو ليسوا بشرا مثلنا، لهم نفس العقول التي لنا وإن أسماهم الناس أنبياء ورسلا وشيوخ؟ قيل لنا أن العقل قاصر ومحدود وبالتالي لا يُعَوّل على عقولنا كثيرا، حسناً أليس أتباعك هم أيضا كذلك ... لو صدق الإنسان ذلك واختار أن يؤمن على أن يعرف، وعاش حياته وهو يردد أن عقله قاصر لبق في الكهوف التي كان يأوي لها قبل الاف السنين. بل قيل أن العقل سلطان ولئى النبي ثم عزل نفسه، ونقل أهل الإيمان أن يكفيك من العقل أن



يعرفك صدق نبيك ثم يخلي بينك وبينه. أتدري يا رب أني أظن أن الإنسان كي يتدين عليه أولا أن يطفئ شيئا ما في خلایا مخه ويغلق جزءا من عقله كي يقبل بما يملیه عليه دينه، ألم يقل أبو العلاء اثنان أهل الأرض، .. ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له. اذا كان الدين متفقا مع العقل كما قيل لنا فلا حاجة لنا به، واذا كان مختلفا معه فمن باب الأولى أن نرفضه. لا يمكن أن تؤمن حتى تُطفئ شيئا من شرارة المعرفة التي تستعر في خلایا مخك وتُسكت صوت قلبك النابض بروح البحث عن الحقيقة، إذ ليس هناك من منطق في الدين إلا بقدر ما هناك ليل في نهار.

لم أنزلت كتابك وبعثت رسلك في عصور الجهل والظلام؟ أهو مثل ما يقول أتباعك من أن الناس آنذاك كانوا في حاجة لوميض نورك تُنير به حياتهم وتُضي طريقهم أم لأن الناس وقتها كانوا في ظلام دامس فهم أسهل انقيادا وأكثر قبولا لتعاليمك وإيماننا بمعجزاتك. ألم يكن من الأجدر أن ترسل للبشر كتابك في عصرنا هذا حين انحسر الجهل وزاد الوعي وبدأ الناس في السيطرة على مصيرهم وتغيير البيئة من حولهم وأوشكوا أن يدمروا كوكبهم؟ ماذا لو أنك انتظرت قليلا يا رب قبل أن تبعث كتابك .. فبدلا من أن ترسل نبيك في السنة ٥٤٠ م، بعثته في منتصف القرن الماضي وليكن بعد الحرب العالمية الثانية مثلا، حين هلك ملايين البشر دون أن تفعل لهم شيئا. ماذا لو كان ظهور رسولك في العام ١٩٥٢م وجاء بنفس كتابك وآياته التي نعرفها اليوم .. أتظن الناس ستقبل بتعاليمه ويصدقون به؟ أتراهم حين يروى لهم عن معارجه للسماء وانشقاق القمر وعن سفينة نوح وشق البحر سيصدقون به .. أتراهم يصدقون بقصة ابراهيم حين همّ بذبح ابنه وهو يرويها لهم أم يقولون أن مثل هذا مكانه في المصححة للعلاج وبأخذون على يديه ليسجنوه لو همّ فعلا بقتل ابنه؟ لربما أصبح كتابك لو تم نشره لأول مرة في العام ١٩٥٢م مثل قصص الخيال العلمي أو أفلام هاري بوتر. ماذا يعني إذن أن نصدق بكتاب صدر قبل أربعة عشر قرنا ونتخذة دينا لنا وبين أن نقرأ نفس الكتاب ونضعه في مكانه الصحيح، للمتعة والتسلية لو بدأ نشره اليوم؟ هل هناك تفسير لذلك غير أننا إنما نؤمن بما زرعه فينا أهولنا ومجتمعنا وسلطاننا السياسية ونردد ما قالوه لنا؟

يصفون كتابك بالثبات وأنه محفوظ عن التغيير من لدنك ويريدون له في ذات الوقت البقاء والاستمرار فإنما هو طبعة واحدة لم يتم تحديثها فما كُتب فقد كُتب .. ألا يعلمون أن التغيير هو سنة الحياة والثبات هو الموت والجمود. أليست الكتب القديمة الثابتة هي اليوم في أرفف المتاحف والكنايس يطلع عليها السواح والمتعبدين من أجل الفرجة والتأمل لكن الوثائق الحية هي تلك القابلة للتعديل والتطوير حسب الحاجة الإنسية. انظر الى وثيقة الدستور الأمريكي كم هي نبراس في قلوب معتقيه اليوم بسبب التعديلات التي طرأت عليه مع مرور الزمن. ما بال بعض مما جاء في كتابك تم تعطيله اليوم والتوقف عن العمل به بالرغم من صراخ بعض أتباعك وعدم رضاهم، لم يعد مقبولا في ذائقة إنسان القرن الواحد والعشرين استرقاق البشر أو استخدام طرق التعذيب الوحشية من قطع الأعضاء والرجم بالحجارة حتى الموت. ربما كان هذا مقبولا أو مفروضا على المغلوب على أمرهم في صحراء العرب قبل أربعة عشر قرنا لكن الوضع اليوم ليس كما كان ومن يفعل ذلك تلفظه مجتمعات البشر المدنية ويوصم بالهمجية. حتى دولة المجتمع الذي يحتضن بيتك اليوم لم يعد يطبق حفلات التعذيب الوحشية تلك .. أصبحت المرأة تعمل مثل الرجل بل وأحيانا هي التي تعيل أسرتها، فهل سيبقى مقبولا أن تترث نصف ما يرث أخوها؟ أين إذن الثبات المزعوم في كتابك، لو كان فعلا صالحا لكل زمان فلماذا لم يعد مقبولا اليوم بعضا مما فيه، هل تغيرت ذائقة السواد من أتباعك وعلت وارتقت على ما جاء فيه؟

أصبح اليوم وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هي الأقرب لذائقة البشر وإنسانيتهم، تحترم عقولهم وتحمي حقهم في الحياة وتصون كرامتهم وتكفل حريتهم في الاعتقاد والتعبير عن الرأي، والتحرر من الخوف والحاجة. هي أقرب ما تكون للدين الجديد الذي يلتزم أكثر الناس بطوائفهم حولها وينفقون على

معانيها ويتخذونها نبراسا لهم بعيدا عن آياتك التي كتبت في عصور الظلام .. تتبع حقوقها من إرادة الناس أنفسهم وفهمهم لطبيعتهم وحالهم وليس من كتابك يا رب. نُقِّر مبدأ المساواة بين البشر دون تمييز، وأنهم ولدوا ليقوا أحرارا وأنّ للإنسان الحق في اختيار وتغيير دينه .. هي قابلة للتحديث والتطوير والتطوير بما يلانم حاجة البشر كما يفهمها البشر أنفسهم ويقررون، على عكس كتابك الذي لا يمكن تحديثه بطبعة جديدة تتناسب مع عصرنا لا سيما وأنه ليس هناك من وسيلة نعرفها اليوم للتواصل معك يا رب. طول العهد بكتابك لا يجعل منه مقدسا إلا بقدر ما يجعل العنب المعتق شرابا مقدسا عند شربه ومع ذلك سيبقى من آيات كتابك تلك التي تتوافق معانيها مع رغبات الإنسان وأخلاقياته يتلوها الناس مثل ما يقرؤون نصوصا تاريخية أو يتغنون بها مثل ما يتغنى أحدهم بأشعار صوفية. من أجل ذلك اقترح يا رب أن يقوم احدهم باختصار كتابك وتنقيحه وليسمه مثلا العهد الجديد، يُبقي فيه على جوهر الرسالة التي تريد ويلحق الآيات التي لا تناسب وقتنا من التخويف والعذاب والترويب وقصص النجوم المتناثرة والبحار المشتعلة في جزء خاص منفصل تُروى كتاريخ يحكي عن طريقة تفكير القدماء.

كتابك كالكشكول أو الوعاء الذي يجمع فيه التلميذ قصاصات متفرقة مما تعلمه ومرّ عليه، هو كلام مصفوف وجُمَل مبنوثة هنا وهناك من دون رابط واضح بينها ومن أجل ذلك اخترع أتباعك فنونا واستحدثوا طرقا لربطه ببعض وفهم مرادك منه وما أسباب النزول إلا باب في ذلك. يمكنك أن تقرأه من أي مكان، من بدايته أو نهايته أو حتى وسطه .. هو خليط غريب من حكايا وقصص وأوامر ونواهي وتعاليم لا تكاد تبدأ في آية وتستفتح بموضوع حتى تجد نفسك فجأة في مكان آخر بل إن أول سورة منه ففرت فيها الى الخصومة مع أحد مخالفيك لتسفعه بناصيته ووصفه بأفزع الألفاظ بدلا من أن تستغل بداية كتابك ومقدمته لتتحدث عن موضوع رسالتك وماذا تريد .. ثم ما ذنب ذلك المسكين الذي سفهته وهذّته سوى أنه عبّر عن رأيه بما سمع من آيات جديدة يسمعا لأول مرة. ما هذا الكم من الشتائم واللعن والسب .. تلعن من يخالفك وتقذفه بأبشع العبارات وتصف من يخالفك بأنهم كلاب أو حمير أو قرود وخنازير أو مهين أو نميم بل وتقول عن أحدهم بأنه زنيم دعِي! أيعقل هذا يا رب .. أيعقل أن تستخدم الفاحش من الكلام والبيديء من القول في حديثك عن من يخالفك؟ إنما هذا كلام البشر لبعضهم حين يكونوا سبّابين .. أيعقل أن تستخدم هذه الألفاظ وتلك العبارات وكأنك واحد منا؟ ألم تجد كلاما أكثر تهديبا وألفاظا أرقى من تلك وعبارات أفضل، تتناسب مع جلالك وعلو قدرك .. أنت يا اله المتكلمين ورب الكلام.

## الآخرة

لم خلقتنا يا رب؟ .. لا، لست أسأل عن الكون من حولنا ولا حتى عن الحياة بينما بل عنا نحن البشر الواعون لأنفسنا .. لا تقل لي ما يردده علينا رجالك كي نعبدك ونلجأ اليك تضرعا وخيفة منك .. فما لك ولعبادتنا؟ أمن أجل أن نلصق جباهنا بالأرض عدة مرات باليوم .. أتزيد صلاتنا من قوتك أو يرفع ركوعنا من عزتك أو يتسع ملكوتك من أثر دعائنا لك؟ لا تقل لي أنك تتلذذ حين تشاهد جباهنا تهوي الى الأرض ساجدة لك، أو تستمتع بروية أجسامنا وهي مستلقية في محراب طاعتك! أيشعرك ذلك بنشوة كنتك التي تصل فيها مخلوقاتك الى رعشة الجماع حينما تتزواج بينها. ما الذي يجعل هذا منا إذن؟ أنصبح مثل العاهرات اللاتي يمارسن الجنس فيما يختبئ سيد البيت خلف باب زجاجي يشاهد الحدث أمامه ليصل الى ذروة النشوة من خلف الستار؟ ليت شعري .. ما الذي تريده منا يا رب؟

عزيزي الله،

قرأت كتب المتقدمين والمتأخرين عنك، قرأت كتبنا بالعربية وأخرى بالإنجليزية على فترة من الوقت تصل الى أربعين عاما .. وتوصلت الى حقيقة واحدة وهي أن الدين من صنع البشر، لا شك عندي في ذلك. الدين هو صناعة بشرية بحتة لا دخل لك بها .. أما أنت فأني أقف عن الإجابة حول سؤال وجودك، فأنا لا أدري ولا أعرف. حدّي في التعاطي مع دينك هو كتابك ورسولك ومن نشره من أتباعك لأن هؤلاء بشر يسري عليهم ما يسري علي وبينهم أوجه شبه، أما أنت يا رب فليس بيني وبينك أرضية مشتركة. أعترف بجهلي بك وعجزني عن معرفتك فضلا عن فهمك .. وأعتقد أن عدم معرفتي بك لن تضرنني مثلما أن معرفتي بك لن تنفعك. من تكون، وماذا تكون، لا يهمني ذلك .. كن كما تريد أو بالأحرى كما يريد خلقك لك أن تكون .. لا علاقة لي بذلك ولا أريد أن يكون لي علاقة بذلك. أتباعك يؤمنون بك، ليس لأنك موجود .. بل أنت موجود لأنهم يؤمنون بك. إن كانوا يظنون أنك موجود فستكون وإن كانوا يظنون أنك لست بموجود فلن تكون فهم لا يرون العالم كما هو بل كما هم، لكن ما دخلي أنا بذلك كله. أظن أن فكرة وجودك قد خلقها الإنسان فالجائع حين لا يجد خبزا والمظلوم حين لا يجد عدلا والمريض حين لا يجد شفاء والمكولم حين لا يجد مواسيا يبحث عن عزائه في اله مختفي بالسماء. تقل الحاجة لتلك الفكرة كلما أصلح الإنسان من حاله واقترب من سد الفراغات في حياته وأصبح أقرب الى تحقيق العدالة .. فلربما في مستقبل الزمن حين يتحقق ذلك ويعيش الإنسان في سلام حقيقي ويسيطر على مصيره بنفسه، حينئذ تنعدم الشرور والآلام والحروب بين البشر وتزدهر الحياة وتثمر المنع والملذات بدون احساس بالذنب أو مشاعر بالنقص وتصبح الأرض وقتها هي الجنة المزعومة وتختفي الحاجة لك يا رب.

لماذا يتردد رجالك المؤمنون بك في اللحاق بك يا رب حين يحين وقتهم .. أليسوا على موعد معك ومع أحبائهم الذين فارقوهم. هم أكثر الناس تعلقا بك وشوقا للقائك كما يزعمون .. لم تراهم يخافون من الموت ومن مغادرة دنيانا هذه .. أليس هناك سيجدون ما كانوا به يُبشرون .. ما بالهم متعلقين بدنيانا الزائلة الزائفة كما يزعمون ويرفضون مغادرتها أكثر من غير المؤمنين؟ لست خائفا من ملاقاتك يا رب، فرهان بأسكال الذي يفرح به رجالك لا يعني شيئا لي بقدر ما يعني أنهم هم أيضا يخاطبهم الشك فيك مثلي. هم يمتنون أن يكونوا الراحين سواء كنت بانتظارهم أم لم تكن .. وهذا شك فيك ابتداء منهم

وإلا لتبنتوا على إيمانهم بك ولم يتقولوا عليك. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كل يدعى الوصول اليك بحسب دينه الذي ارتضيته له حسب زعمه، لبت شعري من منهم ستقبل به إن كان كل واحد يدعى أن الآخر مخطئ في دينه .. أتقبل بهم جميعا مع أن أديانهم التي يدعون وصلا بها لك تكفر بعضها البعض؟ لست خائفا من ملاقاتك كما أني لست متشوقا كثيرا .. إن كُتِبَ لنا أن نلتقي فأسألك أين كنت مختفيا عن الأنظار، فأنا صادق مع نفسي ولست كبقية الأتباع الذين يريدون الفوز بنتيجة الاختبار عن طريق نقل الأجوبة الجاهزة من كتابك .. أما أنا فأريد أن أصل للأجوبة التي يقبلها عقلي وليس ما يملئها عليّ غيري. سأجلس معك جلسة عتاب ومصارحة أسألك عن حياتنا والأمان وأمالنا التي لم تتدخل بها، لم أبقيت نفسك مختفيا حين كنا في أشد الحاجة لك .. لم تتجلى لنا حقيقة بدلا من الركون الى الإشارات الضعيفة والتلاعب بعواطف الخليفة .. أتشعر بالمتعة حين تفعل ذلك؟ أكنت تحس بنشوة عارمة حين ترانا نمد أيدي الضراعة ونمرغ رؤوسنا في التراب حتى تروا الأمان؟ أي شعور سادي يتناكب حين تتولى من غير رجعة وتترك الناس الذين تعلقوا بك وعقدوا عليك الآمال وتوجهوا لك بالصلوات واخترعوا لك حججا وأعدارا، أتلقى نظرة للوراء وأنت مغادر لترى من بقي يبكي من أجلك ومن توقف عن ذلك؟

إن اخترت يوم اللقاء بك أن تقبل بي كما أنا، لا كما غيري وأن تتمن لي استخدامي لعقلي الذي منحني إياه وعدم تعطيلي لمملكته التي زرعتها فيني فلربما أنت جدير بكونك رب وتستحق هذا اللقب، أقول ربما إذ يبقى أسئلة تحتاج الى إجابات منك لعلي أكون أنا الذي أحاسبك عليها بدلا من أن تحاسبني. وإن اخترت غير ذلك وأظهرت السخط وعدم الرضا كوني لم أغش في الامتحان كغيري من أتباعك ولم أعطل عقلي وأسير مع القطيع فلست جديرا بالربوبية التي تتلبس بها ولا تثريب عليّ حينئذ حتى لو كان مصيري هو جحيمك الذي يتحدث عنه أتباعك لأنك في هذه الحالة لست بالعاقل الرحيم بل أنت الظالم الشرير. ليس بيدي حيلة وقتها مثلما أن ليس بيدي حيلة اليوم فقد أتيت لهذه الدنيا من دون أن أستشار، وأرفض أن أكون تابعا لكائن غيبي لا أعرف ما يكون سوى من كلام يردده غيري عن غيرهم عن غيرهم عن غيرهم، لا يختلف كثيرا عن حكايا الجن وبابا نويل. ثم كيف نتيق أنك أنت الرب يوم اللقاء العظيم .. قد يكون أحد القوى الغيبية وما أكثر مدعيها هي التي أيقظتنا من رقدتنا وليس أنت .. عليك أن تثبت لنفسك أولا أنه أنت وليس فوقك أحد قبل أن تثبت لنا.

ثم ما الذي تعنيه بالخلود يا رب؟ أندري أن فكرة الخلود تخيفني أكثر من العدم .. عشت عقودا من الزمن وهأنذا الآن مودع وقد تعبت من الاستيقاظ كل يوم حاملا رأسي فوق كتفي. ستون أو سبعون سنة أحسست فيها بالتعب بل وبالملل أيضا فما بالك بملايين أو مليارات السنين الى ما لانهاية وأنت تصحو كل يوم أو ربما وأنت صاح طول الوقت في جنة عرضها السماوات والأرض. ما تلك العيشة يا رب، ياه .. أي مللٍ سأحس به وأي ضجر وسأم سأشعر به .. حتى ولو انتزعت الملل من نفوسنا وطردت الضجر من قلوبنا وأمت الموت من حياتنا كي لا يبقى الا زمان لا ينتهي .. كم هذا مخيف! ثم يأتي رجالك ليصرفوا الناس عن تخيل ذلك السجن السرمدي ويخدروهم بالحديث عن الملذات والمتع التي سيجدونها في جنتك مما لا يخطر على قلب بشر .. يستوي في ذلك السجن الأبدي من هو في جنتك ومن هو في نارك.

فكرة الخلود الأبدي فضلا عن كونها مرعبة هي أيضا خالية من المعنى وغير مقبولة .. الألم واللذة طارنان ولا يمكن الإحساس بأي منهما إلا ببداية ونهاية. تصوّر سنا يؤلم صاحبه .. لو استمر هذا الألم وبقي صاحبه يتوجع منه فترة من الوقت ثم طال به الزمن سنين وسنين .. أترأه يستمر في توجعه أم ينسى كيف كان حاله بدون ألم؟ ثم ماذا عن اللذة .. تناول وجبة شهية أو قطعة من الكيك أو الأيس كريم أو تصفح كتاب ممتع .. تصور لو أن ذلك الكتاب أو ذاك الكوز من البوظة لا ينتهي .. ألا يصبحوا

مملين ويفقدوا المتعة التي تصحبهم؟ ما الذي يجعل من تلك الأشياء لذيدة سوى أنها تنتهي ومعرفة الإنسان بأنها تنتهي .. خذ واحدة من أقوى الملاذ وهي لذة الجنس التي لا تدوم الا بضع ثواني وأحيانا دقائق .. تصور لو أنها استمرت ساعات وأيام وأسابيع وسنين .. أبحس بها الإنسان لو بقي منتشيا دوما؟ هناك من يرى أن جنتك إنما هي لذة الجنس مستمرة على الدوام .. ثم كيف تكون أحرانا الأبدية حصادا لدنيانا المحدودة، سواء مكافأة أو عقابا؟ كيف يستقيم ذلك مع عدلك الإلهي يا رب .. بعض الأفعال الأنية في دنيانا الفانية يقابلها خلود في نارك، أيعقل هذا وأنت رمز للعدالة؟

ثم ما هذه الجنة المملة؟ .. جنس وأكل وخمر، جنس وأكل وخمر .. وكأنها حفلة من حفلات العريضة الجنسية في أحد الخمارات. أليس توفير نساء لمتعة الرجل هو مثل القوادة .. أليس في ذلك إهانة للمرأة وكأنها مثل الدمى والألعاب الجنسية التي يستخدمها الرجل في الدنيا؟ كتاب مقدس تتحدث فيه عن كبر صدور النساء الذين ستقدمهم لمتعة رجالك في جنتك وتغري بهن أتباعك، تغريهم بكواعب أترابا، بنساء ذات أنداء كبار .. أيعقل هذا منك يا ملك الملوك؟ أريد أن أمارس هواياتي المفضلة والتي كنت أمارسها سابقا .. أريد مشاهدة الأفلام بالسينما والسفر لاكتشاف بلاد جديدة وتصفح الإنترنت، أهنالك إنترنت في جنتك يا رب وتويتر وفيس بوك ويوتوب؟ أريد أن أعب الكرة حتى أحس بالتعب، أيمكن أن أحس بالتعب أم أن هذا لا يسري في جنتك؟ لا أريد فاكهة تتدلى فوق رأسي لأمد يدي وأقطفها بل أريد أن أصعد شجرة لأقطف الثمرة بنفسي وربما أقع في الطريق وأجرح قدمي .. أريد أن أحس بالجوع والألم قليلا، ثم لا أريد امرأة مستلقية على الأريكة بانتظار ممارسة الجنس معها بل أريد قصة حب مع امرأة تتمتع وتتهرب مني في علاقة قد تفشل أو تنجح .. أريد لوعة الفراق ولهفة اللقاء. ثم كيف سأستمتع وأنا أعرف أناسا أحببتهم في دنياي انتهى بهم المطاف الى نارك .. أي نفس تقبل أن تتقلب في جنتك بينما أبوها أو أمها أو ابنها أو أحد من أحبائها يصطلي بنيرانك. ثم ما لي وللمؤمنين متكنا على الأرائك .. أقابل رجالك وأتباعك الذين أعرف كذبهم وزيفهم في الدنيا بينما أهل الدلال والبهجة هم في النار. أتدري يا رب، ربما كان هناك خطأ ما فالجنة إنما هي عقاب للأشرار والجحيم هي مأوى للصالحين الأخيار .. لعل أتباعك قد خلطوا بين الإثنين في عجلة من أمرهم.

وما تلك الأشياء المرعبة المفزعة التي جاء بها كتابك وأعددتها لمن لم يصدق بك في نارك الموقدة بسقر وتارة في الحطمة وتارة في لظى نزاعة للشوى. شراب يشوي الوجوه وطعام يغلي في البطون كغلي الحميم وعذاب بمقامع من حديد وسحل وشي بالنار وكوي للجباه والجنوب والظهور وتبديل جلود مكان تلك التي احترقت حتى يستمر مسلسل التعذيب وكأنها حفلة شواء عظيمة يتقلب فيها الناس ويصلون مثل قطع اللحم المشوي وفي سلاسل يسلكون .. ومع ذلك هم يأكلون ويشربون بل ويتكلمون ويسمعون! أنواع من الترهيب والتخويف والفرع الذي لم نقرأ له مثيلا ولا حتى في أسوأ سجون البشر، بل إن البشر أنفسهم قد اتفقوا أخيرا على تجريم التعذيب حتى ببهائمهم وأسوأ ما صنعوا يا رب لا يقارن بأهون ما لديك في الهاوية ثم تقول عن نفسك بعد ذلك أنك رحمن رحيم! صنوف من العذاب لم نعرفها وأشكال من الإرهاب لم نسمع بها حتى قرأنا كتابك وما أعددتها لمن لم يؤمن بك الى درجة أن تجعل نزيل نارك يتمنى أن يعود ترابا .. هو أصلا من تراب، تصنعه ثم تُسقيه الوانا من العذاب ليتمنى أن يعود ترابا .. لم لم تتركه ترابا في حاله، لم صنعته إذن؟ كم أرثي لحالنا حين أشاهد أطفالا يُطلب منهم حفظ كتابك بآياته المروعة تلك. أتدري يا رب أننا نضع حدودا عمرية لمشاهدة أفلام الرعب بالسينما فلا يشاهدها إلا الكبار .. خمسة عشر أو ثمانية عشر عاما. ربما علينا أن نفعّل الشيء نفسه مع كتابك فلا يمسّه .. ليس المطهرون، وإنما البالغون، ولا ضعاف القلوب .. بل شداها. لا نحتاج الى عقاب منك يا رب، يكفي حياتنا الني نعيشها.

ما لك وللحرق والنيران يا رب .. تشعلها وتؤقد بها الناس والحجارة ثم تدعو نفسك رحمن رحيم! تلعن أصحاب الأخدود الذين حرّقوا الناس وتفعل أعظم منهم. لم لم تختبر البرودة الشديدة مثلا كي تُعذب بها، لأن الذين بعثت كتابك لهم يعيشون في أرض حارة ويعرفون أثر النار أكثر من الصقيع؟ ثم كيف تعاقب أحدا لمجرد أنه لم يتعرف عليك، أفهم قوانين البشر تلك التي يحكم فيها أحدهم على آخر لأنه ارتكب خطأ بحق آخر لكن لا أفهم كيف يكون الجهل بك خطأ يستحق عقوبة منك؟ لو أن ملكا تجول في صحراء مملكته وقابل أعرابيا اكتشف في حديثه معه أنه لا يعرفه .. أتظن الملك سيغضب منه ويأمر بقتله أو تعذيبه؟ دعني أكون صريحا معك يا رب، أنت موجود لأن هناك من أوجدك .. لو توقف عن ذلك (عن الإيمان بك) لاختفت من الوجود. أنت كائن لأن أحدهم أراد لك أن تكون، أنت قائم لأن هناك من أقامك .. أنت تُحيي لأن أحدهم أحياك في عقله. قد أكون مخطأ لكن كل الدلائل كما أرى تشير الى ذلك.

يقول أتباعك حين أثير تلك الأسئلة عن الملل والخلود والفناء والعدل وأحاول فهم رسالتك التي ضمّنتها كتابك، يقولون بأنني ارتكب خطأ حين أحاول أن أقيس تلك العوالم الغيبية بمقاييس عالما الفاني وأنظر لها بمنظار دنيانا.. حسناً، وهل هناك من منظار ومقاييس غير تلك التي نملكها؟ أعطونا منظرا آخر نقيس به غير عقولنا ودنيانا ثم إن كل أوصاف عالم الآخرة الغيبي إنما هو من كلام البشر ومفرداته وتصاويره، حتى أنت يا رب .. إنما أنت بمقاييس عالما، ترى وتسمع وتبتطش بيدك وتهزل. أتعرف يا رب أنني حين أشاهد فلما سينماني مادته تقوم على الفانتازيا الغريبة في قصته وعوالمه التي صنعها المخرج باحتراف، كفلم أفاتار مثلا، أندمج في ذلك العالم وأنسى عالمي الذي كنت فيه الى درجة أنني حين أخرج من صالة العرض أحتاج لبضع ثواني كي أستعيد توازني الفكري وأعود الى حياتي الطبيعية السابقة التي كنت عليها قبل ولوج الفلم. مصيرنا حين نلج عالمك الأخرى سيكون أعظم وقعا بكثير من دخول صالة سينما لمشاهدة هكذا فلم وسننسى من كنا وكيف كنا وماذا كنا.. حينها لن يكون لفكرة الثواب والعقاب من معنى إذ كيف أجازى على شيء لا أعرفه بل إن حياتي في الدنيا لن تعني لي شيئا من هول وغرابة ما سأرى .. مثلما لو أن أحدا عاد جنينا في بطن أمه، أترانا نذكر عالما ذاك في بطون أمهاتنا؟

الهدف من الحياة كما يقول دينك هو عبادتك يا رب .. حسنا وما الهدف من ذلك؟ للذهاب الى الجنة .. ماذا عن من لا يريد أن يذهب للجنة لا سيما وأنها مكان للأكل والعبادة الجنسية .. ليس له إذن سوى النار. ولكنه لا يريد الإثنتين .. أليس هناك خيار سوى الجنة أو النار؟ ماذا إذا كان لا يريد شيئا .. يموت وينتهي. لنفرض أنه دخل الجنة .. ثم ماذا؟ ما الغاية من وجوده .. هل لأنه فان ويعرف أنه فان ويرى الأشياء حوله تفنى سأل عن الهدف من وجوده؟ هناك معنى في هذا العالم وليس غاية، هناك مضمون وليس هدف .. هناك معنى يستطيع أن يجده العالم في مختبره وفي أسرار الطبيعة حوله وهو يتوق للمعرفة، يجده الفنان في ألوان لوحته وهو يرسم أفضل ما يتخيله، يجده عالم الرياضيات في معادلاته، يجده المحسن في ابتسامته من يمد العون له، يجده العاشق في نظرات محبوبته ويجده الإنسان في كل جميل وفي كل فعل للخير وفي كل رفع للمعانة عن الآخرين وفي كل منظر شروق للشمس أو غروب. ليس أتباعك يا رب هم فقط من يمكنهم أن يجدوا معنى للحياة .. هناك آخرين ملحدون ومؤمنين .. سعداء وراضين قانعين، بل إن من أتباعك من هم أكثر مادية في تصورهم للدنيا ومتع الآخرة من غيرهم ومن الملحدون. قد لا أفهم هذا المعنى وتلك السعادة التي أشعر بها حين أنظر الى ابتسامته محبوبتي أو ألوان فراشة جميلة أو ألوان قوس قزح في يوم شتوي بديع، مثلما لا يفهم المتدين المعنى أو السعادة التي يجدها في سجوده لك، لكن على المؤمن أن يكون صادقا مع نفسه فيما يريد .. أريد تلك المتع والملاذات التي وعدته بها لنفسه أم يريد معها أو بدونها الخير والحب والسلام له وللخلق .

## المرأة والدين

عزيزي الله،

ما بالك والمرأة، تلك المخلوقة المرهفة الحس الطرية العود والناعمة الملمس، صنعتها ضعيفة مسكينة ومن ضلع الرجل، إن حاول أن يقيمها كسرهما وإن تركها بقيت عوجاء ولولا حواء لم تَحُنْ أنتى زوجها الدهر كما يقول رجالك وولكلتها لهم كخادمة مطيعة تأتمر بأمرهم وتصبح قيد شورهم .. إذا مرضت لا يلزم زوج علاجها وإذا ماتت لا يلزمه حتى شراء كفن لها! لن أسألك لم إذن خلقتها فأى جواب منك إنما هو دفاع عن موقفك هذا منها وهو غير مقنع إذ يمكنك صنع ما تريد من دون زوجين اثنين .. ألسنت صاحب كن فيكون، لكني أسألك لم وضعتها في منزلة أقل من منزلة الرجل ووهبته القوامة عليها .. ما الذي فعلته بك تلك المسكينة لتجعلها أكثر أهل النار .. أهنالك ما يغيظك منها يا رب الى تلك الدرجة؟ في كتابك الكثير من الآيات تحكي عن السبي وعن ملك اليمن وعن الزنا (بالتراضي) وتفصل في ذلك لكن لم تأت بأية واحدة عن انتهاك المرأة باغتصابها .. صوّرت الشيطان في جسدها فهي سبب الغواية، .. تقبل وتدبر في هيئة شيطان وتركت عقل الرجل وهو يجذب لها وساويت بينها وبين الحمار والكلب في قطع صلاة أتباعك وحكمت على من وليت أمرهم بعدم الفلاح وأوشكت أن تأمرها بالسجود للرجل وسمحت له بضربها ووصمتها بنقص العقل والدين كما يقول أتباعك بل وسمحت له أن يكرهها على ممارسة الجنس معه، وأنها تبيت تلعنها ملائكتك إن هي رفضت الانصياع لزوجها .. ثم يأتي رجالك اليوم وبعض من نساءك ليقولوا أنها جوهره مصونة وملكة محروسة راضية قانعة في مملكة الدين .. أيعقل هذا يا رب؟

الحالة الوحيدة التي ربما تحظى فيها بتقدير من الرجل هي حينما تكون أما وذات ولد .. حين يكبر أولادها تحظى بحبهم وتقديرهم، لكن ماذا عن حياتها قبل أن تبلغ من العمر عتيا وماذا عن من لم ترزق بأولاد، ثم إن عاطفة الأمومة لا تحتاج أصلا الى تعليمات من فوق. سلبت منها كرامتها وإنسانيتها التي أعادها بعض من خلقك من غير المؤمنين بك حين سطّروا حقوق الإنسان .. المرأة في بلدي يا رب لا يمكنها أن تتزوج أو تدرس أو تعمل أو تسافر من دون موافقة ذكر ولو كان أغيب منها وأصغر .. أيرضيك هذا يا رب أم هو كما يقول المعتذرون نيابة عنك تفسيرات محلية وتأويلات موضعية لكلامك لا تعكس مرادك ولا تلتزم بمقاصدك. إن كان كذلك، فلم لا تتدخل وتعيد الأمور الى نصابها .. الى ما تريد حتى نفهم ما تريد، ألا تريد لنا أن نفهم مرادك؟ انظر الى كم المقالات والكتب التي دبجها رجالك للدفاع عن موقفك هذا بالحديث عن مكانة المرأة في دينك وتقنين ما أسموه بالشبهات حولها لترى كم هي مسكينة وإلا لما احتاج أتباعك أن يكتبوا كل هذا الكم دفاعا عن موقفك منها، أتعرف يا رب .. لا بد أن تكون ذكرا لتجعل من المرأة هكذا! كيف تقبل يا رب بل وتشرع أيضا لقوم أن يتخذوا سببا إثر قتال مع آخرين وبعد أن ينتصروا يعاملوا نساء الفريق المهزوم كجواني توزع نساءهم كما يوزع المتاع ليمارس جند الفريق المنتصر الجنس مع نساء الفريق المغلوب غصبا وقهرا حتى ولو كنّ متزوجات .. أليس هذا تعدياً على إنسانية المرأة وكرامتها؟.. لبيت شعري، كيف سبي النساء وممارسة الجنس معهن غصبا ولو كن متزوجات حلال، بينما شاب وفتاة يمارسان الجنس مع بعض بالتراضي حرام؟

يقول أتباعك أن هذا ديدن عصور الجهل والظلام وأن وضع المرأة في الأمم سابقا كان هكذا لكن ما دخل ذلك بكتابك وبرسالتك الإنسانية للعالم أجمع .. ألم يكن الخمر أيضا معروفا في الأمم السابقة ومع ذلك تدخلت وحرمته على أتباعك المسلمين. ألم يسعك أن تتدخل وتصحح الحال وتعيد للمرأة كرامتها وتضعها في مصاف الرجل، أليست قيمة المرأة ودورها وإنسانيتها أهم وأعظم شأنًا من قدح جعة يسكبه أحدهم في كأس ليستمتع به؟ ثم ما دمنا نتحدث عن المرأة لنتحدث أيضا عن الرق والعبيد والجواري والقبان، كيف يا رب تسمح بل وتشرع لناس أن يسترقوا آخرين ليصبحوا في مرتبة أدنى من غيرهم؟ كيف تُبقي على وضع اجتماعي لا يتناسب مع ما تبشر به، أليس دينك هو دين النور والعدل والرحمة والإنسانية؟ سيقول المعتذرون من أتباعك المرديين لكلام من سبقهم أن هذا تقليد وممارسة قائمة ومعروفة قبل نزول كتابك .. حسناً، الآن وقد أعلنت رسالتك ونشرت كتابك، لم تـم تضمّنه ناصرياً قاطعاً لا يحتمل التأويل بمنع الرق والمتاجرة به وتحريمه حتى ولو كان في ذلك إضرار مؤقت بمصالح من بعثت به إليهم .. هل أنت تتملقهم يا رب أم أنك تسنّ قانوناً أنسانياً للبشرية جمعاء يصلح لكل زمان ومكان كما يقولون؟

لا يمكن أن أغفر لك يا رب سكوتك على مسألة تتعلق بكرامة الإنسان وحرية هي من أعظم ما يمتلكه .. كنت أتوقع منك وأنت رب العباد أن تمنع العبودية تماما بين عبادك بدلا من أن تتحدث عن أحكامها وبيان شرعيتها وعلاقة السيد بجواريه. أنت في ذلك كمن يرى المظلوم وهو يتلقى الضربات تلو الأخرى على وجهه ورأسه فتأتي لتقتن عددها حتى لا يهلك وتحول الضرب من الوجه الى البدن. أيعقل أن يكون بشر من مثل ابراهام لنكولن ومارتن لوثر كنج أكثر عظمة منك حين يناضلون من أجل الحرية فيما تطالب أنت بتحسين شروطها أو تسهيل الفكك منها كما يدعي أتباعك. أليست الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أفضل من آياتك .. ألم يكن أجدر بك أن تعلنها مدوية على الملأ في كتابك الخالد أن الرق حرام بينكم يا عبادي مثلما أن الظلم حرام .. كيف يكون الظلم حرام بينما الرق حلال؟ كيف يكتمل دينك يا رب وسوق النخاسة يستمر قائما لقرون طويلة بعد نشر كتابك؟ هل لأننا عبيد لك أردت لبعضنا أن يجرب شعورك حين نمتلك مصير غيرنا ونسخرهم لنا .. أيمكن أن تكون عنصريا يا رب .. أيعقل هذا؟

عزيمي الله،

أعذرك فيما نحن فيه فأنت لست المشكلة، إنما أنت كالمسكين البائس الذي يُسند اليه الآخرون أفراحهم ومصائبهم وكالصديق يعلقون عليه مآلاتهم وآمالهم وكالضامن يرجونه لتغطية النقص في حيواتهم فما الدنيا الا استثمار ناقص لا يوفي برأس مال صاحبه .. أنت شماعة الأخطاء واله الفراغات في حياة البشر، يستخدمك كل أحد ليسدّ النقص في حياته. ورطك غيرك في تحمّل ما لا يحمل وإلا فإنّ المشكل هو ذلك الإنسان الذي اخترعك. يقولون أنك واجب الوجود، ولو لم توجد لأوجدك الإنسان العاقل .. من يدعي معرفة بك غير العاقل. أيعرفك المجنون أو الحيوان أو حتى الجماد أو إنسان النياندرثال؟ من يعرفك يا رب غير الإنسان العاقل .. أيتأثر بوجودك الفعال ولا أقول الخامل أحد غير ذلك الإنسان؟ ليته أبقاك بعيدا عن حياته العامة واحتفظ بك في دائرته الفردية على مستوى شخصه، فالدين لك لكن الوطن والعيش المشترك للجميع. لم يفتن لذلك الا بعض الشعوب النابهة حديثا والتي وعت ذلك ورأت من الشورور ما رأت فحيّدت الدين وجعلته مشروعا شخصيا خاصا لا دخل للدولة به .. الدين شيء فردي متى ما تعدى الأحد أصبح خطرا على الشعوب. ألم تقل في كتابك أن كلهم آتية فردا .. هل ستستقبلهم يا رب يوم الدينونة بصفتهم الإعتبارية أم بصفتهم الشخصية؟ هل ستنادي على رئيس مجلس الإدارة بالشركة الفلانية وعلى ملك الدولة الفلانية أم ستلتقي بهم كأفراد يمثلون أنفسهم وما كسبوه بصفتهم الشخصية؟ ما بال أناس يتعاملون معك إذن وكأنك ستحاسبهم بصفتهم الإعتبارية .. كيف



نسب دولة ما لدين ما فنقول دولة اسلامية، هل للدولة دين وهل ستحاسب الدولة أم ستحاسب الأفراد الذين يعيشون على تلك الأرض وفي ظل تلك الدولة؟

أتعرف يا رب ما الذي يجمع بينك وبين الدولة، كلاهما كيانات وهمية افتراضية لا توجد الا في مخيلة الناس الذين اخترعوا تلك الصور المجردة. إن التصديق بالشيء لا يجعل منه حقيقة سوى في عقل صاحبه وإلا فإن الواقع هو ذلك الذي يبقى حين تتوقف عن الإيمان به .. هل تبقى يا رب حين يتوقف الناس عن الإيمان بك؟ ومع ذلك فإنك يا الله أنت والدولة كيانات مفيدة بلا شك، اتفق الناس على إضفاء صفات بها والحاق مهام ووظائف لها لتؤدي أغراض محددة مثلما أن ورقة النقد تؤدي غرضا اتفق الناس على قبوله لكن وجودها ليس لذاتها وقيمتها التي تصدر منها بل للقيمة المعنوية التي وضعها الإنسان فيها، فهي ابتداء من صنع الإنسان وبنات أفكاره مهما بلغت في قوتها وعظمتها كالدولة وورقة النقد .. هكذا أنت. لكن مثل ورقة النقد التي قد تتعرض لهبوط في قيمتها الشرائية بسبب التضخم لينتج عن ذلك ارتفاعا في أسعار السلع فيتضرر الناس من ذلك لا سيما محدودي الدخل ويستفيد أناس آخرون، هكذا أنت أيضا يا رب قد تتضخم في عقول الناس لتدخل في أدق تفاصيل حياتهم واسلوب معاشهم وطريقة تفكيرهم فيضيق أفقهم وتنحسر روح المبادرة لديهم وتكسف شمس الحرية في سمائمهم ويستفيد آخرون من ذلك.

عزيزي الله،

ألا يمكن أن نتعرف على بعض من دون أن ندخل الدين بيننا؟ أنت كما أنت جميل معطاء ولو أنني لم أفهم بعض الأشياء عنك، كقولك للشيء كن فيكون. عقلي لا يفهم مثل تلك الأحاجي والألغاز .. ربما كان ذلك الكلام يليق بزمن الإنسان القديم أما اليوم يا رب فإنّ كن فيكون هو مما لا يمكن للعقل أن يقبل به فضلا عن أن يسلم بما ينتج عنه، ولا أظنك تقبل يا رب أن أوّمن بك من دون عقل فأنت تخاطب عقولنا في كتابك. أتدري ما يخطر ببالي حين أقرأ كن فيكون، أتذكر تلك الكلمات التي يرطن بها الساحر وهو يخرج أرنا من قبعته "أبراكادابرا" ثم يضحك الحضور .. ذلك المشهد هو ما يخطر ببالي الآن. نعم لا أنكر أنّ كن فيكون وأمره بين الكاف والنون أكثر وقعا وأطربُ نغما على السامع العربي من أبراكادابرا، لكن ما الفرق يا رب؟

حسنا لنعد الى الدين قيل أن نتيه بين الكاف والنون .. قيل لنا أن الدين مثل كتيب الاستعمال للصانع حتى نتعرف عليك بشكل دقيق فنحن ابتداءً من صنعك ونحتاج الى كتاب استعمال للتشغيل والصيانة حتى نبقى على تواصل بك. ألا يمكن أن يُبقي على تعارفنا بدون عقد بيننا أو كتيب استعمال، صحيح أن العقود تجري بين البشر حين يتعاملون مع بعضهم لكن أفضل الصداقات هي تلك التي لا يصاحبها اتفاق أو تمليتها شروط بل تظل عفوية بسيطة لا يشترط فيها أحد على الآخر أي قيود أو بنود .. ثم أيّ كتيب سنستخدم يا رب؟ فهناك ثلاثة أديان منسوبة للسماء وغيرها من الأرض لكن لنبقي حديثنا الآن عن تلك التي تدعي أنها من عندك. أي واحدة سنستعمل منها لتتعرف عليك؟ الذي أراه أن الجغرافيا هي التي تحدد أي كتيب نستعمله فمن ولد في بلاد المسلمين فسيستخدم كتابهم ومن ولد في بلاد النصرى فسيستخدم كتابهم .. أيرضيك هذا يا رب؟ .. أتترك مكان الميلاد يحدّد من سيهتدي الى كتيب الاستعمال، الى العقد السوي والدين الصحيح ليصل اليك .. ما ذنب من ولد في المكان "الخطأ"؟

أتدري يا رب ما مشكلة اعتناق دين من أديانك التي بعثت؟ .. أنها حصرية منغلقة على أتباعها. كيف يا رب يكون دينك عالمي كما يقول أتباعك وأن كتابك للناس كافة ثم متى ما دخل أحد في جمي رجالك أصبح لا يقبل بالأخر من غير دينه، يدعون غيرهم ويرفضون دعوة الآخرين لهم .. بينون معابد لهم في بلاد الآخرين ويغضبون من فكرة بناء معبد للآخرين عندهم مع أن كلهم يدعون وصلا بك. متى

ما دخل أحدهم في دينك فلا يحق له الخروج منه إلا بقطع رأسه .. ما ذنب من ولد فيه؟ هو لا يستطيع الفكك منه .. أتعرف أن هذا هو أحد أسباب انتشاره فهو يورث أبا عن جد وأتباعك من أكثر أهل الأرض تناسلا. كيف انتشر دينك يا رب بعد وفاة رسولك .. هل كان هناك وفود ومدوبين وبعثات أو مؤتمرات عالمية لعرض بضاعتك التي ظهرت للتو بين الناس والتعريف بدينك الجديد ونشر الأخبار عنه أم أن رجالك اعتلوا ظهور جمالهم وقاموا بصقل سيوفهم واعلموا في الناس القتل مُخَيَّرينهم بين ثلاث، إما أن يدخلوا في الدين الجديد غصبا أو يقدّموا ضريبة مالية لاتباعك ويعلموا الطاعة والولاء أو يجهزوا أنفسهم للذبح والقتال. كيف تقبل يا رب أن ترى رجالك يرحلون الى أناس يعيشون في حالهم وبين أهاليهم خارج موطن كتابك ليرغمهم على واحدة من تلك الثلاث؟ ما ذنب من لا يريد أن يعتنق دينك حينذاك .. بل ما ذنبه اليوم؟

ضحكوا عليّ حين قالوا لا تلموا الدين بسبب ضيق فهم أتباعه له ولا تحمّلوه ما ليس منه بسبب سوء تطبيقه كما زعموا، وقضيت شطراً من حياتي أصدّق ذلك وأقرأ كلاما من مثل ذلك الذي يقول حين سافر لبلاد كافرة وجدت اسلاما ولم أجد مسلمين وحين عاد لبلده المسلمة وجد مسلمين ولم يجد إسلاما. عدت للتفريق حين كنت أردد مثل هذا الكلام كي أوفق بين ما أراه أمامي من أفعال أتباعك وبين ما يزعمون أنه في كتابك وأنفقت زمتنا من عمري وأنا أجبر أخطاء أتباعك لتصرفاتهم وألقي باللوم على سلوكهم منزهة كتابك عن أخطاء متابعيه وتلك حيلة أخرى لا أستطيع أن أتتبع مصدرها، حتى بدأت أفكر بعمق حين زادت جرعة الدين في مجتمعاتنا قبل سنين وتحول بعض من رجالك الى خلايا تنتشر الرعب والقتل وكأنهم يستحضرون فرق الحشاشين أيام الحسن الصباح، لكن الذي جعلني أفيق ببطء مما أنا فيه هو ردة فعل الباقيين الذين يستنكرون على استحياء تلك الأفعال في الوقت الذي يستقي شيوخهم عقيدتهم من نفس المصادر التي يستند عليها قادة تلك الخلايا. طال الزمن بكتابك ومضى أربعة عشر قرنا والمعتدرون نيابة عنك يدعون أن الفرصة لم تتح بعد لتطبيقه كما أردت. تكتشف لي يا رب حينها أن المشكلة ليست في أهل الدين بل هي في الدين نفسه، ليس في تطبيق النصوص بل في النصوص نفسها .. ليس في فهمنا للدين بل في جوهره.

أصبح اليوم من يلتزم بكتابك ونصوصه ويمارس شعائره بحذافيره ويطبق تعاليمه كما كانت في العهد الأول الذي صدر فيه وسط رسولك وصحبه ويعتنق مبادئه حرفيا كما شرعت يسمى متشددا وإرهابيا في نظر العالم بينما من يرفضه تماما ويختار طريقا غير ما علم وأسلوب حياة غير ما شرع يصبح ملحدا زنديقا خارجا عن الملة وحلال دمه في نظر أتباعه .. ما الذي سيفعله العامة اليوم من الذين توارثوا دينك إذن وما هو مستقبلهم؟ يبدو أن هناك نسخة قادمة منقحة لطيفة قليلة الدسم خفيفة السعرات من تعاليم كتابك ستتطور مع الوقت لتناسب مع الزمن القادم، قد يفقد معها أتباعك زمام السلطة أمام العامة لا سيما بعد أن يكون الناس قد نضجوا وزاد وعيهم بأنفسهم .. أيرضيك هذا يا رب؟ إن كان لدينك يا رب أن يبقى فعليه أولا أن يتخلى عن تلك الأحمال ويلقي عن نفسه تلك الأغلال التي تراكمت عليه، مثلها في ذلك مثل الدهون التي توشك أن تسد شرايين الإنسان. عليه أن يتطور ويتغير .. سيتوقف الناس عن تطبيق معظم ما في كتابك من الأحكام والتعاليم التي لم تعد حتى يومنا هذا تناسب وقتنا الحاضر فما بالك بالقادم من الأيام .. هناك بعض الكلام العام الذي لا يضر وهو الذي سيبقى يُتلى أما الباقي فأحسبه سيُهمل ويعطل.

الناس يولدون بلا دين وتلك هي الفطرة لكن أهاليهم ومجتمعهم يغرسون فيهم دينك يا رب الذي ارتضاه آبائهم لهم. أليس من حق المواليد أن يُتركوا حتى يبلغوا الحلم ثم يقرر كل واحد أي فكرة غيبية يريد أن يعتنق، إن أراد، بدلا من أن نترك ذلك للجغرافيا ومكان المولد؟ يصعب أن تتفق أحدا بتغيير قناعاته الدينية عن طريق العقل والمنطق لأنه لم يختر تلك الاعتقادات بعقله أصلا بل ولد بها وفيها وتم غسل

دماغه للقبول بها وينشأ وهو يدافع وينافح عن أشياء لم يختارها ابتداءً. أنظر الى أمرك لإبراهيم بأن يذبح ابنه والشيطان يقول له لا تفعل .. ويعتقد من يقرأ ذلك أنك يا رب الأرحم بينهما. لو أن إبراهيم موجود اليوم وهو ينوي القيام بذلك لزعجوا به في السجن أو لجروه الى أقرب مصحة نفسية. دولة خادمة بيتك تنفق المليارات على مبنى الشيطان في منى والناس تفرح بذلك وتبجله بل وتضحك سخرية من آخرين على غير دينهم ينفقون الافا على أبقار تنفعهم.

أتدري يا رب ما يحتاجه دينك اليوم؟ يحتاج الى خصخصة .. نعم، مثل خصخصة القطاع الاقتصادي كي نفاك اشتباكه مع المنتفعين من أهل السلطة والسياسة ونحوه من مؤسسة أهلية عامة الى مؤسسة خاصة تعمل وفق قوانين الشركات المقفلة بدلا من قوانين السوق العام، شركة توصية بسيطة بدلا من مساهمة عامة. هل تقبل يا رب أن يكون الدين أمرا شخصيا بحتا ويعامل كالحشيش المخدر الذي قامت بعض الدول بتقنينه، مثله في ذلك مثل أنواع من المخدرات البسيطة التي لا تضر كثيرا والذي أجازته بعض الدول المتقدمة على شرط أن تكون للاستخدام الشخصي البحت وتجرّم تسويقه وبيعه والمتاجرة به. هكذا هو الدين، سيكون ضارا لو زاد استهلاكه لذا يجب تناوله باعتدال ومنع تسويقه والمتاجرة به. لا أنفي حاجة العامة له والبسطاء من الناس الذين يتعاطونه لا سيما في ظل انعدام العدالة الاجتماعية وتفشي الفساد من قبل أهل السلطة فيبحث أولئك المساكين عن مخدر مؤقت. هو مثل الأعضاء الحميمية للإنسان .. يمكنه أن يفتخر بها بل ويتبجح بما يملك أسفل هناك ولكن عليه أن يبقيا مخفية تحت ملابسه وأن لا يبرزها أو يلوّح بها للآخرين لا سيما الصغار منهم.

ثم كيف يا رب يكون الدين تجارة ويكون فعل الخير بيعا مؤجلا تقبض ثمنه لاحقا، .. هل أدلكم على تجارة، وإن الله اشترى من المؤمنين .. فاستبشروا ببيعكم. أنت في ذلك نافست أولئك الذين يلومهم المعتذرين من بعض أتباعك حين يرون قوما منهم يتخذون من زيهم وحالهم مصيدة للآخرين ويتاجرون بالدين إما عن طريق البصق على المحسودين أو فك الطلاسم عن المرضى والمسحورين أو جمع المال باسم المحرومين وشعارهم في ذلك يا باغي الخير أقبل. يحسب المعتذرون من أبنائك ذلك تطفلا من أولئك على ما يروونه الدين الحق واختطافا له من بين أيدي أبنائه في الوقت الذي تقوم أنت أيضا بالبيع والشراء باسم دينك. يفعل أتباعك الخير طلبا للمتعة والملاذات والجنس مع من تخبأه لهم في جنتك من حوريات، تقيس لهم أعمالهم بالوزن والمكاييل .. وكأننا في محل بقال يضع الميزان ليقيس مقدار الخير والشر، أيهما رجحت كفته فهو نصيبه. بينما أفعل أنا وغيري ممن لا يؤمن بدين، نفعل الخير بدون مقابل .. لا نفعله لكنز مخبأ لنا كما يزعمون بل انطلقا من إنسانيتنا وأخلاقنا التي تتمنى الخير للناس كافة وترجو الإحسان لهم وتأمل بمبادلتنا نفس الشعور. هم يفعلون الخير، ليس لأنه خير، بل لأن هناك أجرا عليه مخبأ لهم، ويفعله مثلي لأنه خير في حد ذاته من دون أن أنتظر ثوابا لذلك .. مثلما أنني أمتنع عن عمل الشر ليس خوفا من عقاب وعذاب ونار كما هو حال أتباعك بل لأنه شر .. ألا يكفي ذلك؟ بل أليس ذلك أرقى وأتقى وأبقى ممن تكون بوصلة أخلاقه مرتبطة بميزان يقيس حسناته وسيئاته ليعطيه لقائها نصيبه من ثواب وعقاب ينتظره.

يريدون منا يا رب أن نصدق بك ما دنا قد ولدنا في أرضهم .. حسنا، ثم ماذا؟ لو قبلنا بذلك وبأن هناك حياة أخرى، ما الذي يحله ذلك في دنيانا، ما المصاعب التي ستنتهي من حياتنا إذا قبلنا بذلك الأمر وسلمنا أن هناك عالما غيبيا بعد الممات .. معظم من حولي يقبلون بذلك ولا أجد شيئا قد تغير فيهم. هل تحسنتم أحوالهم أو تعدلت أمورهم أو ارتقوا في سلم الأمم .. يقولون ستذهب للجحيم إن لم تؤمن بالجحيم، حسنا سأذهب لاحقا، لكن ما الذي غير ذلك في حياتي الآن؟ هل إيمان أتباعك بجحيم في حياة أخرى جعل منهم أناس أفضل وأرق وألين وأسلم أم جعل منهم أناس أغلاظ متحاربين متخاصمين .. ثم أي طائفة يا رب ستقبل بها؟ هل تقبل جواز المرور من كل أتباعك بغض النظر عن

دياناتهم وانتماءاتهم العقديّة؟ لم إن ترعم كل طائفة أن جواز الآخر لا يُقبل به في مملكة السماء وأن تأشيرة الدخول هي فقط تلك الممنوحة لهم من قبلك. لم لا يكون هناك تبادل للأدوار فيجرب أتباع كل عقيدة ومذهب دين غيرهم .. يتخلى المسلم مثلا عن دينه ليصبح نصرانيا مدة معينة فيرتاد الكنيسة بدلا من المسجد ويصلي هناك .. أسيجدك هناك يا رب؟ أنت الذي كنت تلنقيه في مسجده، ومن سيجد النصراني حين يغير دوره ويرتاد المسجد هو الآخر، أسيجدك أنت أيضا هناك؟ ليت شعري .. من سيجد من؟

خمسون عاما قضيتها أعتنق نفس الدين الذي اختارته لي الصدفة حين ولدت في هذه البقعة من الأرض .. أيمن لأحد من أتباعك يا رب أن يقدم استقالته ويتوقف ولو مؤقتا عن اتباع دينك .. أيمن أن يصحو أحدنا ذات يوم ليقرر أن يستقبل من دينه بعد أن اكتشف أن المدة قد طالته به وهو على نفس الدين والمنهج؟ ربما أحس بالملل ويريد أن يغير مذهبه ويجرب دينا آخر أو يأخذ إجازة مثلا للراحة أو للتغيير بعد طول عمل، نعم فالدين دوام والتزام كالوظيفة .. هناك التزام بالقواعد والإجراءات وهناك بعض الأعمال والممارسات البدنية وهناك زملاء آخرون في الوظيفة يشاركونك نفس العمل وهناك ترغيب وترهيب، تكافأ على الأداء الجيد وتتعرض للمسائلة أو حتى الفصل إذا تدنى مستوى أدائك في العمل. مثلما أنك تستطيع أن تستقيل من الوظيفة ألا يمكن أن تستقيل من الدين - بغض النظر عن السبب- أم أنه ورطة لا خلاص منها؟ يمكن لأحدهم أن يغير وظيفته ويباشر عمله في وظيفة أخرى، هل يمكن أن أغير ديني وأجرب دينا آخر لأرى كيف يكون .. لم لا يحق للمسلم أن يجرب المسيحية مثلا ليرى إن كانت فعلا مثلما يحكي المسلمون عنها ويقولون أو أن يجرب البوذية ليرى هل هي مثل ما يدعيه قومه عنها؟

مثلما أن الموظف يحصل على تعويض بعد سنين من العمل فيجد راتبها تقاعديا وخدمات صحية له ولعائلته، ألا يحق لرجالك التقاعد بعد تلك السنين من الالتزام بدينك؟ ألا يتوفر لأحدهم وضع تقاعدي من الدين يرتاح تحت ظلاله فيما تبقى له من سنين في هذه الدنيا .. لا تحيلني يا رب الى جنتك وتقول لي أن التقاعد إنما سيكون هناك فما ذاك الا العذاب الأبدي حتى ولو قضى وقته كله في افتراض الأبقار. قد تسألني وما الذي سيتغير لو أنك منحت تقاعدا لرجالك .. سيتوقف عن أداء الشعائر الظاهرية -هذا إذا كان ممارسا لها- وتقديس كثير من الأمور والفاك من بعض المعتقدات. سيعطي لفكره إجازة خارج نطاق العمل .. يتأمل وضعه الجديد وإذا لم يرتح لما وجد يعود مرة أخرى للدوام. ألا يستحق رجالك أن يجربوا حياة غير حياتهم ولو لفترة مؤقتة ويغيروا من طريقة تفكيرهم ويتقمصوا شخصيات الآخرين لينظروا للآخر بمنظار الآخر وليس بمنظار أنفسهم كي تسقط الجدران المصطنعة وتختفي العداوات المفتعلة التي صنعتها الأديان وتنتهي الحروب، .. كل الحروب بين البشر. حتى لو لم يقدم الدين سببا مباشرا لشن الحروب فهو بالتأكيد قدم لأصحابها العذر لارتكابها.

## نظرية التطور

عزيزي الله،

كنت أحد أتباعك المؤمنين والمحافظين على أداء طقوس الدين التي يفسرها لنا رجالك المخلصين وما أكثرهم في بلدنا .. لا أدري بالضبط كيف أشرح لك يا رب موقعك من الدين بالنسبة لي وربما لبعض من هم مثلي مع أنك رب الدين وهو الطريق للوصول لحضرتك كما يزعم أهلك ودعاتك. صحيح أنني كنت أدعوك باسمك وأصلي من أجلك لكنّ بوصلة الوصول لجناحك تاهت في طرقات معبد دينك وأداء طقوسه التي غرقت في شعائرها برتابة وتكرار. أرجو أن لا يتكدر خاطرک حين أقول أنني لم أكن أهتم بك كثيرا .. كان تحسسي من الدين ومع الدين ومن رجاله القائمين عليه الحاكمين بأمرک. ولأكن أكثر دقة، من تدخل الدين في أمور حياتي الشخصية وتفصيلها التي لا تليق بمن هو مثلك أن يتدخل فيها بمن هو مثلي، ماذا ألبس وكيف البس، ماذا أكل وكيف أكل، كيف أقص شعري وكيف أقضي حاجتي، متى أتسوق، لأن الأسواق تغلق من أجلك. لم أعز شخصك الكريم من الانتباه الكثير بل كنت أمامي خلف ستار وضعه رجال الدين، نعم أنت محور حديثهم وجوهر دينهم لكنك بقيت بعيدا عندي صعب المنال أو هم أرادوك كذلك حتى بدأت أتعرف على فكرة كنت قد سمعت بها من قبل ولكن من بعيد .. في سني الأولى بالجامعة حين يهوي الينا دعواتك من أجل تثبيت مكانتهم بيننا يأتون على ذكر تلك الفكرة الخطيرة بزعمهم - صدقوا وهم كذوبون- هي خطيرة فعلا لأنها ترعبهم. عرفت تلك الفكرة من أعدائها وأزحتها من لائحة تفكيری لأنهم أرادوا لي ذلك بعد أن وصموها بالكفر وأصقوا بها من التهم ما أصفوا، والأسوأ أنهم ضلّوا المتلقي المحايد فنسبوا لها ما ليس فيها .. تلك هي نظرية التطور.

مضت ثلاث عقود عشت فيها وفيّ لأتباعك، أمارس ما يطلبوه مني في حياتي الشخصية، أشاركهم في ما يعتقدوه تقرّباً منك وتدينا لك .. أمتنع عن الشراء وقت الصلاة وأتوقف عن الاستماع للحنّ جميل وقت الأذان وأطلب من بجانبی أن لا يأكل بيساره وأدفع من مالي زكاة حسب ما تملیه معادلات رجالك. أصلي كما يريدون، وأتزوج كما يفصلون وأتعامل مع الغير حسب ما يتصورون .. لم أفكر بك شخصيا فأنت صعب المنال وكل ما علي هو أن أدين بدين رجالك لأعيش كغيري من الناس، لكن شيئا ما بعقلي الباطن يخبرني بأننا مضحوك علينا من قبل رجالك الذين يستمدون شرعيتهم من دينك. مع مرور الوقت تبدو بوادر الأزمة بين ما يريد أتباعك وما يريده العالم تظهر على السطح في حياتي القصيرة الفانية، استغرق ذلك مني وقتا ليس بالقصير كي أخرج من الصندوق الذي وضعوني فيه وأفكر خارجه، لكن الصوت الآخر المخدّر المضللّ يحاول أن يقنعني بأن الأزمة هي في التطبيق وليس في الدين نفسه، في تفسير الدين وليس في محتواه، في رجاله وليس في جوهره .. وأن أي مشكلة أو ما قد يبدو أنها مشكلة هي في الفهم وليس في النص، وأنه يمكن درء تعارض العقل والنقل. كلما حاولت أن أستيقظ يواجهنی هذا الصوت القادم من عمق الأوراق الصفراء ومن قبور الموتى الأحياء.

لنعد الى نظرية التطور، كما قلت سابقا. لم أهتم لها كثيرا في صغري لأن نظامنا التعليمي وكما تعلم يا رب لم يكن يسمح بالاطلاع على، فضلا عن مناقشة أفكار، خارج إطار مؤسسة الدين التي يديرها أتباعك أما تلك التي لا يسعهم إخفائها لشهرتها فكل ما عليهم هو أن يصموها بالكفر والإلحاد ويكون هذا كافيا لتأمين دينك وإحاطته بسياج من الجهل. أما من يقلت من ذلك السياج ويجد في نفسه التواقة

للمعرفة الرغبة في تعلم الجديد فسيصطدم بجيش من المضللين والجهلة الذين يحورون تلك النظريات والمعارف ويقولونها مالم تقله خيانة للعلم ويبقى المؤمن الذي لا يجيد لغة غير العربية مُضلاً مخدوعاً وأسير ما يُكتب في لغته. كنت أُجيد لغة أخرى لكن قراءاتي العميقة بتلك اللغة كانت في تخصصي المهني البحث أو أشياء عامة سطحية لذا لم تلتفت انتباهي وبالمناسبة فإن الكثير من أبناء أتباعك الذين سنحت لهم الظروف السفر لطلب العلم في بلاد الكفر يعودون الى دولة حامية الدين وهم أكثر تلوّنا من ذي قبل، بعضهم يعاني من أزمة هوية فيعيش عالمين متناقضين والكثير ينكفي مع فريق المعتدلين دفاعاً عن دينك والقليل الآخر يتاجر بخرافات الإعجاز العلمي في كتابك.

ما الذي يجعل حضوراً نابهاً من صفوة المتعلمين الذين هجروا مجتمعاتهم المؤمنة لتلقي العلوم العالية في بلاد الكفر قد تدرّبوا على استخدام عقولهم هناك في المعمل والمختبر وقاعات الدراسة يطفؤونها في حضور أتباعك .. كيف بعقل نابه يعيش في عالم الغرب، يستيقظ أول النهار في مجتمع يطلب الدليل ويستخدم البرهان ويستدل بالمنطق في تعاملاته يغفل ذلك كله ليصدق آخر النهار بآيات الإعجاز في كتابك. أتدري يا رب أي أشعر أحياناً أن الدين كالفيروس ينتشر بيننا بقوة يبدأ منذ الصغر ولا يموت بموت الإنسان بل ينتقل الى غيره ويصعب الفكك منه. هو فيروس من عنصر مركب ففيه جانب ذاتي الحركة يعيد صنع نفسه بنفسه ويقوي تركيزه كلما ضعف وهفت حتى أن المصاب به يعيد تذكير نفسه به كل يوم وليلة في أذكار لا تنتهي كي يزيد من فاعليته بل ويتواصى مع الآخرين في ذلك وهناك جانب خارجي يتحكم فيه رجالك حين يقومون بحقق ذلك الفيروس ونشره بين الناس في الصغر والمداومة على تطويعه في الكبر لينقاد ضعيف المناعة ويتخذ قويا بعد أن زادت الجرعات ودامت.

نحن نتلقى لقاحاً من نوع خاص غير الحصبة أو الثلاثي .. لقاح نأخذه لسنوات عديدة بجرعات منتظمة في ابر نتلقاها ليس في العيادة وإنما في البيت والمدرسة والمسجد. لا تعطيه الممرضة وإنما يبدأ به أتباعك من المعلم والمطوع وإمام المسجد والشيخ ثم تنتشر أماكن التطعيم في الأسواق والمدارس ووسائل الإعلام ليعمّ المجتمع بأسره وتحت نظر الدولة .. مثل بقية الأمصال هو جرثومة أو فيروس تم التعامل معه بحيث أصبح ضعيفاً لا يحدث مرضاً وإنما يحرض الجسم على إنتاج أجسام مضادة مقاومة للعرض الذي قد يتعرض له الجسم لاحقاً. أما العرض الذي قد يتعرض له الجسم لاحقاً - لا سمح الله - فهو التفكير بحرية وأما اللقاح فهو "تطعيم الدين" .. تطعيم يحملك من التفكير الحر ويقودك الى تسليم عقلك لمن يفكر عنك، هو لقاح محلي أنتجته مختبرات جامعاتنا ومدارسنا .. يؤخذ في الرأس وليس في العضد، عن طريق العين والأذن (السمع والمشاهدة والقراءة). يبدأ بتركيز منخفض الدرجة ثم تزداد الجرعة مع نمو الشاب .. أما من يتخلف عن أخذ جرعته فهو عرضة للإصابة بأنواع من الأوجاع أدناها التغريب وأعلىها التكفير .. طبعا هناك أنواع من الحقن والأمصال، منها الذي يبدأ منذ الصغر ومنها الوقائية الخاصة للشباب وهناك جرعات مكثفة وجرعات تعزيزية للكبار .. وهكذا.

أول طريق الفكك يا رب هو أن يتحسس الإنسان رأسه ولا يسمح لأحد أن يستعير عقله فضلاً عن أن يتعدى عليه أو يسرقه أو يستخدمه أو ينوب عنه في استخدامه أو يوحي اليه بدون استئذانه أو يؤثر عليه بدون رضاه، لا أذكر بالضبط متى كان ذلك الاستقلال في التفكير بالنسبة لي إذ قد سلّمت رأسي لغيري كي يفكر عني ومن أسوأ من أتباعك المنتفعين يا رب كي يستلموا الرؤوس. وثاني دروب الفكك هو نفي القداسة عنهم والتعامل معهم كبشر والنظر الى كتابك كنص تاريخي قابل للتحليل والبحث والدراسة بتجرد كأي وثيقة تاريخية. والثالثة هي أعمال النقد في الحكم على العالم من حولنا، إذ أقبل بأن يكون هناك أسئلة لا نعرف إجابتها بعد، حول الكثير من الأمور من أن أحصل على إجابات مُسكّنة من أتباعك لا تقبل الدليل والبرهان فضلاً عن النقاش والاختبار .. وبعدها لا يبقى شيء، إذ تسقط بقية الأفتعة واحداً تلو الآخر.

تصور يا رب أن حياتنا بكل تفاصيلها ودقائقها الصغيرة منذ ولادة الإنسان وحتى دفنه قائمة على فكرة غيبية .. يولد الصغير ويؤذن في أذنه ثم يطهر بسبب كلام يروى عنك .. ثم يلقن آيات قصيرة من كتابك ثم يدخل المدرسة ليلقن تعاليم أكثر، نقلها أتباعك عنك. يكبر قليلا ويبدأ التعود على الصلاة لك والتعبد في محرابك والانتظام في الصفوف مع الآخرين جهتك .. يجد نفسه في مجتمع يحكم خطواته بما يمليه أتباعك نقلا عنك، افعل ولا تفعل. يتوقف عن العمل وقت النداء لصلواتك .. يصل مرحلة البلوغ وينجذب للطرف الآخر لكن شعور الذنب المغروس فيه بسببك يجعله يستغفر ويطلب الصفح منك. تزداد نزواته وتزداد معها جرعة الشعور بالذنب والخوف منك فيلجأ اليك ويوجه دعائه لسمائك .. يتزوج ويمارس الجنس بناء على تعليمات رجالك ووصفاتهم. يعمل ويذخر ماله بناء على قول أتباعك واختياراتهم له من شركات تتبع منهجك .. يمتنع عن الدخول في بعض أنواع الشراء والبيع بسبب تعليمات أتباعك التي أخذوها من كتابك. يسافر ويستمتع ويرقه عن نفسه بمقاييس وأطر وضعها أتباعك .. يمرض ويموت ويغسل ويدفن بناء على تعليمات أتباعك التي ساقوها من كتابك. لا شيء فيما سبق يخضع للعقل والمنطق والتجربة .. بل كل هذا البناء المعقد المفصل في المجتمع وأحواله هو نتاج فكرة غيبية محضة فسرها أتباعك نقلا عنك وفضلوها لنا وكأنهم قد أتوا حديثا من مجلس جمعهم بك .. ياه، ما أعظمك من فكرة يا رب.

الدين عندنا هو كل ما سبق وهو لا شيء فيما سبق. هو الذي يتحكم في مصيرنا ويوجه مسارنا ويرسم مستقبلنا في الوقت الذي لا يعرف طريقنا ولا شيء عن وجهتنا أو دربنا. هو الذي يفصل لنا حياتنا وعلاقتنا ببعضنا البعض ويدخل في كيفية لباسنا وطريقة أكلنا وشرابنا ومراسم زواجنا وبيعنا وشرائنا وطقوس ممانتنا وحتى موارثنا للتراب في الوقت الذي ليس له أدنى علاقة بأي من ذلك من قريب أو بعيد. هو ذلك الذي نحاول أن نقتع قلوبنا به في الوقت الذي ترفضه عقولنا ومع ذلك يتسلل اليها وينسج خيوطه داخلها .. هو كل التقليد ولاشي غير التقليد .. هو متابعة من سبقنا لعجزنا عن الإتيان بأي جديد .. هو الركون للأجوبة المعلبة والتفسيرات الخاملة بدلا عن إثارة الأسئلة والبحث عن المعرفة، هو الخضوع والخنوع بدلا من التحرر والانطلاق .. هو المنهج الذي تتحول معه بمرور الوقت الأفكار التي لا تحمل أي دليل أو برهان الى عقائد غير قابلة للنقاش والتساؤل باستخدام قوة الدولة ومؤسسات المجتمع .. الدين عندنا هو كل شيء وفي نفس الوقت هو لا شيء.

أفهم تعلق الإنسان بالحياة ورغبته في الإستزادة منها ومن أجل ذلك صنع حياة أخرى بعد الممات لعله يلتقي فيها بأحبائه من جديد هذا إذا لم تفرّهم أنت يا رب بوضع أحدهم في جنتك والآخر في جحيمك. هل أتباعك يحتاجون الى هذا الوهم ليعيشوا في دنياهم .. أترعبهم الحقيقة الصارخة الى هذا الحد كي يهربون منها أكثر مما يهربون من الأوهام والخيالات؟ هل الوهم هو ما يعطيهم الأمل .. الأمل بغد لن يأتي وطموح لن يتحقق وعالم لن يولد؟ عندما تُؤخذ منهم أحلامهم وتقصر أعمارهم ويموت أحبابهم وتوفت عليهم الفرص لا يتبقى لهم شيء، وتصبح الحياة بلا معنى سوى تلك التي بعد الممات يعوّضون بها ما فاتهم. كون الأشياء تنتهي وتصل الى خاتمتها لا يعني أنها بلا معنى أو قيمة، بل إنّ من الأشياء ما تزداد قيمتها كونها فانية. معرفتي بقصر حياتي واعتقادي بأن ليس لي فرصة أخرى يجعلني أفعل كل ما بوسعي لأحياها حرا من الأوهام والأغلال وأسخرها لمنفعتي ومنفعة غيري من الكائنات لتكون دنياي هي الجنة التي أسعى لتحقيقها ويكمل غيري سعيهم في ذلك بعدي بدلا من انتظار جنة مزعومة في خيال أحدهم.

لا يرى أتباعك في الحياة سوى معاني الغدر والخيانة وأنها متاع، بل هي متاع الغرور وأنها لا تزيد عن معبر لما بعدها فيتظاهرون بتركها ليستغلها بعضهم .. وصفوها بالمرأة البغي التي لا تثبت مع رجل وأن الأمها متولدة من لذاتها مثلما أن أفرأحها صنو لأتراحها ومع ذلك فهم أكثر من يعيّنونها.

هم لا يرون فيها ما يستحق العيش من أجله إذا لم ترتبط بنص مقدس من عندك ودنيا غيبية في جوارك ويعجزون عن الإحساس بالأشياء الملهمة فيها كما هي بدون نسبتها لك. لحن جميل، منظر رائع لغروب الشمس أو لقوس قزح، امرأة حلوة الملامح، ليلة هادئة في الصحراء تحت قبة السماء، مشاعر الحب والسعادة، معايشرة الأصحاب والأحباب .. كل ذلك ليس ملهما عندهم لذاته ولجماله الذاتي النابع منه بل لأن قوة خارجية أسبغت عليه ذلك. أتخلو كل تلك الصور من المعاني لولا أن أحدا ما في السماء أضى عليها تلك الدلالات .. ألا يمكن أن أستمتع بجمال غروب الشمس دون أن أعتقد بأن كائنا غيبيا يمسك بطرفها أن تقع من الجانب الآخر؟ أتدري يا رب أن الشيء المادي الذي يبقى منا إنما هو ذرات أجسامنا تعود للطبيعة في شكل نبتة أو ربما يرقة أو فراشة بينما الشيء المعنوي الذي يبقى إنما هي أعمالنا التي تركنا والذكرى التي استودعنا في أذهان أحبائنا وأصحابنا، أما سؤالهم عن ذلك الذي اخترعوه من روح ونفس وجوهر وأنا، فإنما تذهب للمكان الذي جاءت منه أول مرة. هم يؤمنون بأن الحياة بعد الموت بينما أرى أن الحياة هي ما قبل الموت.

عزيزي الله،

هأنذا أفعل كما تفعل أنت في كتابك، أنتقل بين الأفكار والحكايات بدون ترتيب وتنظيم ولكني إنسان يا رب وعرضة للخطأ والسيان بينما أنت الرب الذي لا يجري عليه الخطأ ولا النسيان ومع ذلك ستجد من أتباعك من يبحث لك عن تبرير وتفسير وربما يسميه سبب النزول. لنعد الى نظرية التطور مرة أخرى ولنبق فيها هذه المرة حتى لا يشغلنا الإستطراق في الحديث .. ما زلت أذكر اليوم والساعة التي تعرفت فيها عن قرب على نظرية التطور في برنامج تلفزيوني يُعرض في أحد القنوات ببلاد الكفر، كنت وقتها في رحلة خارج بلدنا، دولة الدين. شاهدت البرنامج ثم عدت لأقرأ عنها أكثر بلغة أهلها وكأني لأول مرة أسمع بها بعد أن جاوزت منتصف عمري بقليل. قرأتها كما هي بعيدا عن تقولات أتباعك وتقولاتهم .. رأيت فيها رسما جميلا وتفسيرا رائعا لذلك التنوع البديع الذي نراه في شجرة الكائنات الحية .. هي بحق صدمة لمن يفهم معناها الحقيقي لأنها يا رب تجعلك تعيد التفكير في أصلك أيها الإنسان، من أين أتيت وماذا كنت وكيف وصلت والى أين أنت ذاهب. هل يعقل أن تكون يا رب قد خلقت المخلوقات قبل الاف الملايين من السنين بشكلها الحالي وهيتها التي نراها عليه اليوم ثم بعثتهم في الأرض؟ هل يعقل أن يكون الإنسان قد ظهر فجأة على وجه هذه الأرض في شكله الذي نعرفه اليوم، وهل الزرافة والفيل والعصفور والشجرة التي نراها اليوم هي نفسها التي عاشت قبل ملايين السنين؟ هل عندما بدأت الخلق في ساعة الصفر، صنعت جميع المخلوقات بشكلها الحالي دفعة واحدة ثم نثرتهم في مناكب الأرض وهوائها وبحارها واستمروا بالتكاثر الى يومنا هذا؟ .. أيعقل ذلك؟

لا يمكن أن يكون الإنسان القديم قبل الاف وملايين السنين هو مثل ما أنا عليه اليوم بنفس البنية الجسدية والإمكانات العقلية بل الأقرب للمنطق والعقل هو أن المخلوقات التي عاشت قديما كانت في شكل آخر ثم طرأ عليها تغييرات طفيفة مع مرور الزمن الطويل لتصبح كما هي عليه اليوم. حتى الإنسان في وقته القصير يندرج في خلقه من بطن أمه وحتى يشيخ ويمر بأطوار وتغيرات نلاحظها نحن في حياتنا الفانية، بل إن هناك من الحيوانات الداجنة ما قام الإنسان الحديث بإجراء تغييرات طفيفة مقصودة فيها مع مرور الزمن .. إذن الفكرة ليست غريبة تماما كما أنها ليست جديدة. حين بدأت أفكر في ذلك وأعيه فهمت ذلك الخوف الذي يُصاب به أتباعك من تلك الحقيقة التي حاولوا تجاهلها ثم عندما لم يسعهم ذلك أصبحوا يزورون معانيها أو ينزلونها لدرجة الفرضية حين يتحدثون عن النظرية وينفوا عنها أن تكون حقيقة علمية أو يقولونها مالم تقله بغية التضليل على المتلقي المحايد مع أنه وكالعادة كان بإمكانهم ببساطة تليفق حل لدرء التعارض بينها وبين ما يعتقدوه، فهي لم تتحدث عن أصل الخلق وإنما عن هذا التنوع البديع الذي نراه في إمكانهم أن يقولوا أنها الآلية التي اخترتها يا رب للخلق، كل الخلق ومنهم



البشر .. تسيّرهما كما تشاء بدلا من أن تكون خبط عشواء، وأن أشباه البشر حين وصلوا الى قمة الهرم في سلم التطور وأصبحت فئة منهم بشرا ناضجين، اصطفتيتهم ووهبتهم الوعي بأنفسهم وصاروا مستعدين لحمل الأمانة فبعثت لهم الرسل حاملين معهم الأديان .. ألم تقل في كتابك وخلقناهم أطوارا . أحسب أن أكثر ما يُرعب أتباعك هو تهاوي فكرة الخلق القائمة على كن فيكون، جوهر القدرة الإلهية ومحور إعجازها .. كيف يتخلّون عن تلك العبارة السحرية التي طالما داعبت خيالاتهم وأسرت عقولهم .. كيف يتخلون عن أمرك الذي هو بين الكاف والنون تُحوّر به البكتيريا وحيدة الخلية الى فيل ضخّم أو تجعل من الأمميات التي لا تُرى حوتّ عظيم في غمضة عين؟ يتخلون عن ذلك كله من أجل عمليات تحورية وطفرات جبينية بطيئة مملّة لا نراها ولا نشعر بها اليوم. هل شاهدت يا رب جمهورا يذهب الى مسرح ويشاهد عرضا سحريا يقوم فيه الساحر بإخراج أرنب من قبعة بعد أن يتلوا عليه بعض الكلام .. لا ليس كن فيكون، ولكن شبيهه به. تصور لو أن الجمهور اضطر للانتظار خمس أو عشر دقائق لكي يطل الأرنب من القبعة بدلا من أن يقفز فجأة بمجرد تلاوة التعويذة السحرية .. سيشعرون بالملل ولا بد. أما لو مضت ساعة دون حدوث شيء فلما بقي أحد منهم في الصالة .. جمهورك يا رب مثل هؤلاء، يعشقون فخامة اللحظة الإلهية التي تعلن فيها وجودك وتمارس بها عظمتك كما بشر بها أتباعك، تُبطل فيها نواميس الناس وتعلو فوق الموجود والإحساس دون الحاجة الى وقت مستقطع بين الكاف والنون. هم لا يكثرثون لبضع التفسير الأزلي الذي يمارسه أهل العقل والفكر من بعض خلقك بل يتعلقون بما وراء العقل هربا من واقع مرير جرّه عليهم ظروفهم التعيسة.

مثلما أن نظرية التطور تفسر لنا تنوع الحياة هي أيضا تروي لنا بدايات البشر الأولى وهي رواية محببة السبك تقف على أكتاف العلم الحديث، تستمد منه فصولها في وجه الأساطير التي اخترعها الإنسان القديم ليرضي تطلعه الى المعرفة وتشوقه للمجهول بوسائله البدائية القديمة. قد يكون بطء تقبل العامة لنظرية التطور هو، فضلا عن مهاجمة أتباعك لها وتضليلهم لمتلقيها بنسبة ما ليس منها إليها، طول العمر الزمني الذي تحتاجه ليلحظها العامة من خلقك فهي ليست كقوانين نيوتن عن الجاذبية مثلا أو مبدأ بيرنولي والتي يصدّق بها أتباعك دون الحاجة الى فهمها حينما يحلقون في طائرة بين السحاب. ارتباطها بتنوع الحياة وليس بالتكنولوجيا والمنتجات الاستهلاكية يجعلها بطيئة الاستيعاب لكن عميقة التأثير .. والعميق بطيء. بالرغم من تطبيقاتها التي بدأت قديما في التدجين وصولا الى استخداماتها اليوم في الكيمياء الحيوية وعلوم الوراثة إلا أن العارفين في ديارنا والذين يعول عليهم في نشر النور والمعرفة يخشون من سطوة المجتمع الذي لا يقبل النقد أو التشكيك في معتقداته التي زرعا أتباعك بينهم .. يا لها من فكرة مخيفة!

من بين الأسباب التي تجعل أتباعك يخشون النظرية هي أنها تهدم كل الجدران الوهمية والحواجز الافتراضية بين الإنسان وسائر المخلوقات وتجعله مثل بقية الحيوانات، ليس له مركز استثنائي خاص يختلف فيه عن غيره من الكائنات فلم يأتي للوجود بطريقة مميزة تختلف عن المخلوقات الأخرى ولكن صريحين أكثر مع بعض يا رب ففكرتك عن الخلق كما وردت في كتابك بسيطة وساذجة تصلح للصغار حين يسكون بأفلامهم يلونون بها كراساتهم .. طين وماء وحدائق غناء وخلاف بينك وبين أول البشر بسبب طعام يأكله من شجرة بعد غواية من الشيطان. قارن ذلك بفكرة تطور الحياة حسب قانون الانتخاب الطبيعي والطفرات التي تحصل في الجنس الواحد من الأبسط الى الأبعد وتدرجها من الأدنى الى الأرقى. متى ما فهمت حقيقة ذلك لا يسعك أن تخبأ رأسك في التراب أو تكمل حياتك بدون أن تتساءل عن البدايات وتكتشف حينها أن الإنسان إنما هو مثل غيره مما يدب على هذا الكوكب، ساقته آليات التطور الى أن يشتدّ ذكاهه فوق قرنائه مع الوقت وينمو إدراكه بينهم الى أن أصبح يتحكم في مصيره ومصير غيره بنفسه. لا يهم أننا نعود في أصولنا الى فصيلة الحيوانات العليا من الثدييات

ولا يحط ذلك من قدرنا اليوم فإن نتطور من أصناف أقل شأنًا الى الأعلى إنما هو رقي بل وأفضل في رأيي من أن ننزل من صحبة الالهة الى بشر .. مثلنا في ذلك مثل الطالب المبتدئ الذي يتعلم ويفوق أقرانه ليصبح الأول في فصله، أليس ذلك أفضل من الطالب النجيب الذي يتخاذل ثم يعود بليدا في نهاية المطاف!

كان لتعرفي عن قرب على نظرية التطور وقراءاتي عنها ومتابعتي لما يكتب حولها وما تقدمه من تفسير لظواهر الحياة وتنوعها وترابطها بمثابة الكشف الكبير الذي لم استوعبه قديما لجهلي بها. لم أكن في ما مضى من عمري مهتما بالقراءة العلمية الجادة في هذا الموضوع، ربما لانشغالي وربما لعدم سهولة توفر المادة العلمية في نسختها الأصلية كما هي اليوم مع عالم الإنترنت .. هي كالصدمة التي تأخذ بلبك وتجرك من عنقك وتحاول أن تجعلك تستفيق مما أنت فيه من ظلام صنعه آخرون لتبقى فيه أو من جهل نسجتّه حولك بنفسك من دون قصد، كما هو الحال بالنسبة لي. ما جعلني أعيد النظر في قناعاتي الشخصية على ضوء تلك النظرية هو نشأة الإنسان الحديث و بداياته والذي أجده أكثر إثارة وتشويقا من مسألة الخلية الأولى لأنّ هذي الأخيرة ليس لها جواب معروف حتى الساعة لكن تفسير الإنسان الحديث ومسألة تطوره عبر مراحل أشباه البشر وترقيته في سلم المعرفة ليست صعبة الإجابة ولا هي مستحيلة بل إن تصوّر ذلك في إطار نظرية التطور هو أمر منطقي ومفهوم ويتمشى مع الأدلة العلمية المختلفة سواء من السجل الأحفوري أو التوزيع الجغرافي أو التشريح العضوي والسمات المشتركة في الأجنّة مثلا أو المورثات والجينات .. وفي نفس الوقت يختلف ذلك التصور العلمي المنطقي السلس عن قصة الخلق المدهشة والمذكورة في كتابك، مع أنني أعترف لك يا رب بأن كتابك ذكي في هذه الحكاية إذ لم تتدخل في وصف تفاصيل تلك القصة بل جعلته كلاما عاما يمكن تفسيره حسب مزاج القارئ وفهمه الأنّي في وقته وزمانه إذ لو تدخلت في ذكر تفاصيل أخرى لربما تورّطت في أخطاء سيكتشفها العامة .. خلقتة من طين وكفى! الكتاب العام، الخالي من التواريخ والمليء بعوالم خيالية لا يمكن لأحد أن يدحضها، هو كتاب ذكي يدوم طويلا قبل أن يكتشف أحد أنه ليس هناك من شيء فيه يستحق الدحض.

إذا أردت أن تكتب كتابا يدوم طويلا قبل أن يكتشف بطلانه أحد فاكتب كلاما عاما هلاميا عن أحداث وقصص غامضة وحكايات غريبة واستخدم الروايات الخارقة للطبيعة التي لا يمكن لأحد أن يدحضها أو ينفيها لأنها بالأصل من الأساطير والخرافات المتخيلة مثل لو أن أحدهم إدعى بأن هناك تنينا بألف عين يقع في نجمة الشعرى اليمانية ينفث لها وشواظا من نار تخرج من فمه الأعوج ويقدح الشرر من عينه الحولاء. ثم إياك إياك من اثنتين، توقف عن ذكر تواريخ مطلقة وان احتجت فلا بأس باستخدام تواريخ نسبية كزمن بين حدثين لكن لا تذكر تواريخ لأحداث معينة وتربط حدوثها بزمن مطلق. هذه واحدة، والأخرى ابتعد عن التفاصيل فهناك تجد الشيطان بعينه، المُشكل تجده في التفاصيل إلا في حالة الروايات الخارقة للطبيعة والتي ذكرتُ طرفا منها سابقا كتنين الشعرى اليمانية، هنا يمكنك أن تذكر كل ما تريد من تفاصيل بل يُفضّل أن يكون كلامك في هذي بالذات مفصلا لأنه لن يتمكن أحد من أن يكذبّ كلامك أو يبطله .. هذا يا رب هو بالضبط نموذج كتابك .

## أسئلة حائرة

عزيزي الله،

ما أنت يا رب وماذا تكون، هل أنت حلم في رؤوس النائمين، هل أنت أمل في قلوب التائهين، هل أنت رجاء في صدور المكولمين، هل أنت أمنية في أذهان المفلسين، هل أنت فال في بال المتفائلين أم أنت سراب في نظر العطشانيين؟ .. هل أنت كتف تستند عليها الرؤوس، هل أنت حضن يرتمي فيه العاشقين، هل أنت أب يحتتمي به الصغار، هل أنت أم يلجأ لها المحرومين، هل أنت منارة يهتدي بها الضائعين؟ .. هل أنت بحر بلا ساحل أم سماء بلا علو أم فراغ بلا محيط أم كون بلا حدود؟ .. هل أنت الحقيقة الضائعة أم العدالة المرجوة أم السعادة الأبدية؟ هل أنت هذا كله وأكثر أم لا شيء من ذلك وأصغر؟ لبت شعري، إنما أنت فكرة في عقول العاقلين.

ما الذي تفكر فيه الآن .. نعم الآن، في هذه اللحظة وهذه الدقيقة، لا بد أنك تفكر وإلا كيف تكون الها حيا؟ ما الذي يخطر ببالك يا رب وأنت ترى ما أقوم به من كتابة خطاب لك وكأني أكتب لصديق أو قريب أجيب فيه على رسالته لي، هل حاول أحدهم يوماً الكتابة لك أو الرد على رسالتك؟ .. كم من هؤلاء الذين كتبوا لك كان ردهم حرا طليقا غير خاضع لقيود أتباعك التي نسجوها حولك مثلما يردّ على أي رسالة تطلب منه أمرا أو تدعوه الى عمل ما؟ .. كيف تراني الآن في هذه اللحظة؟ هل تشعر بالغضب أم الانكسار والحزن أم ماذا بالضبط تحس به حين يقف أحدهم ويعلن أنه لا يعرفك ويحاول التعرف عليك عن قرب؟ أنتبسم لي في علو ملكوتك مثل ما يبتسم العارف بقصة ما وهو يسمعا من ابنه يرويه لأول مرة بشغف واهتمام وحرص على سردها بأسلوبه الطفولي البريء أم أنك غاضب مني لتجرؤي علي الحديث معك ومكالمتك بأسلوب بسيط من دون رسميات وتكلف ودون أن أمر عبر وسطائك وأتباعك؟ .. هل أبالغ حين أقول كم أود وأمل أنك تنظر لي وأنت في عليانك بعين الرضا والابتسامه تملو محياك حين أفكر الآن وأتساءل عن ما يخطر ببالك وما الذي تفكر فيه .. أخشى أنني أبالغ قليلا في ذلك.

أنت يا رب مادة خاملة بليدة ساكنة مثل مواطن الدولة الربيعية في مجتمع الرفاه بدولة حامية دينك حين تزداد ميزانيتها السنوية .. هبطت عليه ثروة من السماء فجأة ومن دون جهد منه ولا حساب وأصبح هناك من يحتكر السلطة ويوزع الثروة نيابة عنه .. وهكذا أنت، هبطت عليك ثروة إثر عبادة أتباعك لك بعد أن ظهر الوعي لدى الإنسان عقب عصور من التطور وصار يفكر خارجا عن جسده أما رجال دينك فهم الذين يوزعون تلك الثروة نيابة عنك ويحتكرونها أحيانا .. أليست العبادة ثروة والدين تجارة؟ الحكومة أو السلطة السياسية بالنسبة لنا تماثل السلطة الدينية لرجال الدين بالنسبة لك في الاحتكار وتوزيع الثروات أما المواطن الخامل في تلك الدولة الربيعية فهو مثلك يا رب في عدم فعل شيء .. هلا مرة واحدة في تاريخ الكون قمت بعمل واضح بين صريح لا لبس فيه ولا شك وادّعت أنه منك؟ لا ألومك يا رب فأنت لم ترتكب خطأ حين صنعتنا بل نحن الذين أخطأنا حين صنعناك.

لم تحتاج الى أنبياء ورسول من طرفك وكلاء عنك ومدوبين لك ومتحدثين باسمك وموقعين عنك .. لم لا تنتزل الينا بنفسك وتزيل هذا اللبس حولك وتزيل اللغظ عن من تكون .. لم لا تُظهر للناس سني طلعتك وشميط اللثام عن جلالك وتبين للناس أحوالك؟ هل أنت مختبئ بسبب أفعال أتباعك عبر العصور

وتحس بالخل والعار من ذلك .. لا ألومك فإن من يرى من يتحدث باسمك لا يريد أن يكون له دخل فيما يفعلون. كلُّ يطمع وصلابك وكل يدعي أنه منك واليك وكل يتحدث نيابة عنك وكل يقاتل تحت رايتك وكل يدافع عن كتابك ودينك وكل يزعم أنه يفهم مرادك ويعرف طريقك وكل يزعم أنه وجدك وكأنك ضائع تائه. في بيوتك تخر الأذقان سجداً وتلتصق الجباه بالأرض طمعا في عفوك، وباسمك تُعقد الأولوية وتُرتكب المجازر دفاعا عن حرمتك وتحت رايتك تقام المعارك وتسيل الدماء من أجلك ولجنتك ونارك يعلّق أصحاب المظالم آمالهم فيك ونحو كعبتك يطوف الملايين ويحجون سعيا لرجاك .. كل هذا يجري تحت سمعك وبصرك وفي ملكوتك وأنت جالس منزوي في مكان ما ومخفف عن الأنظار!

دعني أسألك سواليا لا أنتظر منك جوابا له .. لم يا رب لا تتدخل في شؤون من خلقت، تصنعهم ثم تتركهم هكذا. لم أنت حامل الفعل مع أنك عالي الذكر؟ حين أرى فتى يمد يده ليضرب آخر أصغر منه أو بنتا أضعف منه أشعر بالضيق وتغلي الدماء في عروقي وفي أحيان كثيرة أتدخل حين أقدر لأني لا أطيق ما أرى من ظلم يقع أمامي .. ما بالك إذن وأنت ترى كل هذا الظلم الذي يقع بين البشر وعلى مد العصور؟ ما الذي تشعر به حين ترى المظالم تُرتكب باسمك وأنت تراقب ما يحدث؟ دع عنك ما يقوله أتباعك من أنك تدخر تصفية الحساب ليوم الحساب .. قل ذلك للبتن التي تعرضت للاغتصاب وعاشت بقية حياتها وهي ترى المجرم حرا طليقا، قله للذي تُهب ماله وسُرق بيته وهو يرى اللص يتجول في مدينته، قله لمن حُبس ظلما وأتهم زورا، قله للذي عاش البؤس أو المرض أو ولد عاجزا طيلة حياته، قله للملايين التي عاشت وماتت وهي ترى الظلم في عيون ظالمها .. إن لم تتدخل في الحال وإلا فلا حال. إن تجبير المظالم وتحميلها على الآخرة يطيل من العذاب ويزيد من الظلم فالعدالة المؤجلة هي عدالة منقوصة يا رب. ثم إننا يوم الدينونة سنكون شيئا آخر غير ما نحن عليه اليوم كما أخبرتك سابقا، ألا ترى حين أشاهد فلما سينمانيا، وليكن من أفلام الخيال العلمي، كيف أندمج في العالم الذي صنعه المخرج خاصة إذا كان فلما ناجحا الى درجة أنني احتاج لبضع ثواني حين أخرج من صالة السينما كي أعود على عالم الواقع، فما بالك بعالم الآخرة التي ليس لها علاقة بعالم اليوم .. سنكون شيئا آخر حينها وبالتالي فأى عدالة نبتغي حين لا يعرف الخصوم بعضهم البعض.

ثم لو أن العدالة الإلهية مخبئة ليوم الدينونة لماذا لم يتوقف البشر عن السعي لتحقيق ما يمكنهم من عدالة في حياتهم الفانية .. ألا يكفيهم تحقيقك لها في الآخرة؟ يقول أتباعك أنهم إنما يفعلون ما يمكنهم لتجري العدل بينهم كي تستقيم دنياهم ويتركوا ما لا يمكنهم تحقيقه لك لتصفيته في يوم الحساب .. ما أظنهم يقولون ذلك الا عذرا لهم إذا لم يقدرُوا على تحقيق ما لم تحققه أنت لهم، فأنت كالمعذرة بالنسبة لهم يا اله المعتذرين. ربما سجد البشر في القادم من الزمن يسعون بجداً أكثر لحل خلافاتهم وتخفت مظلماتهم بينهم حتى تزول ويحلّ العدل وحينها تنتفي الحاجة الى عدلك المزعم يا رب في آخرة غيبية .. أهي كالحيلة التي ورثناها في جيناتنا من أسلافنا الأوائل كي نسعى ونتطور في هذا الإتجاه لنحقق العدل للجميع حين نبدأ بتجبير النقص الذي نشاهده في حياتنا وتأجيله الى عدل الهي غير مرئي في حياة أخرى ونسعى لتقليل هذا النقص مع مرور الوقت حتى يقلّ ما نؤجله لك يا رب ونصل لحد الكمال فلا يبقى حينها مظلوما في هذه الدنيا وتصبح الأرض حينئذ هي الجنة المزعومة؟

هل حكمك غير معلل، بل تفعل ما تشاء وكيف تشاء وقت ما تشاء كما يقول بعض أتباعك أم أن هناك هدفا كما يقول الآخرون، ثم ما الفرق بين هذا وذاك فإلناس يتحدثون عن تفصيل التفاصيل عنك وما هو قصدك وماذا تريد وهل هناك علة أو حكمة .. كل هذا وأنت خامل لا تدري ماذا تريد. أندري عنك أكثر مما تدري عن نفسك؟ الحالة التي أستطيع فيها أن أقول أننا ندري عنك أكثر مما تدري عن نفسك هي عندما تكون من صنع بنات أفكارنا .. هل أنت صنيعة لنا أم نحن صنيعتك؟ هل خلقنا أم نحن الذين

خلفناك؟ أتعرف أن مشكلة الإنسان الأولى هي بحثه عن الغاية في كل شيء وعلى رأسها الغاية من وجوده .. بعد ثورة المعرفة وقيل بضع عشرات الآلاف من السنين وحين أصبح الإنسان واعيا لنفسه وكأنه كيان خارج عن جسده بمخيلته وذكرياته بدأ يبحث عن الغاية من وجوده. هو لا يجد في هذه الدنيا التي يعي وجوده فقط من خلالها، ما يلبي طموحه الجديد ويواسي آلامه ويغطي النقص الذي يراه بعد أن ارتقى وعيه .. هذه الغاية قد يكون لها أساس علمي في دماغ الإنسان حين محاولته إيجاد شيء من لا شيء كما هو الحال حين يسعى المخ الى إيجاد أنماط ذات معنى في خلفية من الضوضاء مثلما ينظر للقمر مثلا ليرى وجها بينما كل ما رآه هو مجموعة من النقاط التي قام عقله بالربط بينها لتخلق وجها.. لربما كانت عقولنا أدوات لخلق الأشياء من لا شيء.

أتعرف يا رب أنه لو كتب لحركات التقدم اليساري والقومي في منتصف القرن الفائت أن تبقى وتزدهر في ظل أنظمة سياسية عادلة تهتم بالإنسان أو تستبدل بالتيارات الليبرالية الحديثة أو الوطنية والعلمانية التي تحترم حقوق الإنسان وخياراته وتعلي من قيمة الفرد وتضمن تداول السلطة وانتقالها بشكل سلمي لربما تشكل دين معتدل شخصي يحافظ على استمرار معتقيه بلطف ويزيد من قوتهم الذاتية ويكسبهم احترام أنفسهم والآخرين. لكن ظهور ما يسمى بموجة الصحوة وتيارات الإسلام السياسي، بالذات في العقود الأخيرة، يقابلها انكفاء الدين السلفي التقليدي وانفصاله عن العالم زادت من تشابك الدين بالسياسة وهي أحد أسباب موجة الأحاد بك يا رب، فأتباعك من حيث لا يدرون هم سبب في إبتعاد الناس عن دينك وانفصاضهم من حوالبك ومحدثك مثال على ذلك. بالنسبة لي وكما أخبرتك سابقا ليس هذا هو سبب تركي لدينك يا رب فسلك أتباعك وأخطائهم يسهل تحميلها عليهم وتنزيه كتابك عنها كما هو الحال في عقول معظم العامة، أما أنا فقد توصلت الى أن الخلل في الدين نفسه وليس في أهله، في النصوص وليس اللصوص.

أندري يا رب ما أكبر عائق أراه أمام تطور مجتمعات دولتك وراعية حرمك؟ لا، ليس كتابك أو دينك في حد ذاته بل هو في إعتقاد الناس أن كتابك ودينك هو مخلصهم الوحيد وأنه الحل المثالي لمشكلاتهم في حين أنه هو العقبة التي عليهم أن يتخطوها، هو المشكل وليس الحل كما يدعون. كيف تأخذ بيد مريض بعيدا عن الداء وهو يرى فيه الدواء، .. كيف تُقنع طفلا صغيرا بأن الحلوى والساكر التي يتناولها ويجد طعم حلاوتها في فمه تضر أسنانه، .. من يصدق بالطيور التي ترمي الناس بالحجارة وبالقمر الذي انشق فلقين وبالنار التي كانت بردا وسلاما وبقصص العفاريت من الجن وأصف بن برخيا الذي يقطع الفيافي في طرفة عين إنما هو مثل من يصدق بابا نويل وهو يجر خلفه غزلانا تطير على مزاجته السحرية أو حكايا هاري بوتر. من يصدق بأن كتابك الذي بين أيدينا بقصصه وحكاياه هو مُرسل من عندك يا رب فهو كالطفل الصغير الذي لم يبلغ الحلم بعد أو كالمرضى الغائب عن الوعي المنفصل عن العالم، السابح في الأوهام بانتظار من يفيقه من غفلته. ليت شعري، حين يشكوا أحدهم من الأعراض السابقة يا رب يسمى مريضا نفسيا ولكن حين يشكوا منها الملايين تسمى الأعراض ديناً!

يتحدث أتباعك عن الإصلاح في مجتمعاتنا والبعض يرى إمكانية حل مشاكله الاقتصادية بل وحتى السياسية لكنى لا أرى ذلك ممكنا بينما المفكرين والمختصين لا يستطيعوا أن يعبروا عن آرائهم بتجرد دون أن يكونوا تحت سطوة الدين ومسايرة أهله. هو كمن يحاول علاج مريض بالمسكنات دون البحث عن أصل المرض بدلا من معالجة العَرَض .. لا يمكن أن نتوقع إصلاحا حقيقيا وتطورا نوعيا في مجتمعاتنا قبل أن يسبقها إصلاح ديني وفصل للدين عن الدولة. بقي دينك أربعة عشر قرنا لأن الناس عندنا لم تتعرف بعد على تلك المفاهيم الجديدة التي اخترعتها المجتمعات الكافرة مثل حقوق الإنسان، الحرية، التعددية والديموقراطية، المساواة واحترام القانون، بغض النظر عن الجنس واللون والدين

بل وحتى التوجهات الجنسية. أما اليوم فلا أظن دينك سيبقى كما هو .. لا يمكنه أن يتعايش مع تلك المفاهيم بالرغم من ظهور المعتذرين ومحاولاتهم المستميتة لسد الثغرات التي كشفتها العلوم الحديثة والقيم الجديدة. العلم يسافر بنا الى القمر بينما إذا ركبته الدين فيمكن أن يسافر بنا لنفجر أنفسنا في مباني، .. ما زال هناك اليوم من يتناول الدواء وهو يظن أن المرض هو بسبب المعاصي وأن السرطان هو بسبب الذنوب وليس بسبب الخلايا السرطانية في الورم مثلا. حين تسأل عن نوعية المعاصي والذنوب تلك، ستجد أن معظمها من مثل مشاهدة امرأة جميلة أو سماع نغمة شجية وليس سرقة مال عام أو فساد إداري.

يخيفني يا رب من يقول أن القتل حرام لمجرد أنك نهيت عن ذلك. تصوّر إنسانا يقول لي ما يمنعني عن قتلك هو أنّ هناك كاننا غيبيا أرسل لي كتابا قبل عدة قرون ينهاني عن فعل ذلك، بينما آخر يقول أنا أصلاً لا يخطر على بالي أن أضرك أو لا أقبل أن ألق بك ضررا مثلما لا أقبل أن تلحق بي ضررا أيضا. لا شك أنني سأرتاح أكثر في معيشتي مع الثاني لأن حياتي عند الأول هشة ضعيفة وقد تتغير وجهة نظره تجاه قيمة حياتي بناء على تفسيرات مؤوليه وشارحي كتابك وفهمهم لمرادك، أما الثاني فهو مقتنع في قرارة نفسه بتلك القاعدة الذهبية التي توصل لها من دون إيعاز من قوى خارجية غيبية. هل نحن نلتزم بأخلاقنا لأنك أوردت بعضا منها في كتابك يا رب أم لأننا توصلنا إليها بأنفسنا وفهمنا أن هذا هو السلوك القويم الذي يتعايش به البشر المسالمون ويتفق عليه الناس الطبيعيون؟ هل نحتاج الى نص مقدس من السماء لنسعى لتحقيق العدالة ومحاربة الظلم بين الناس وإزالة المعاناة عن الكائنات أم أن هذا هو مما اتفق عليه البشر كي يتعايشوا مع بعضهم في سلام .. أليس هناك من أناس يحيون في تناغم وسلام من دون نصوص مقدسة من عندك، ثم أليس أتباعك اليوم هم أكثر الذين يعانون من تردي أخلاقياتهم بينهم؟

ثم إن هناك من الأخلاقيات في كتابك والممارسات ما يرفضها إنسان هذا العصر ويأنف منها .. انظر الى العبودية والرق وملك اليمين التي أبحثها ولم تجرّمها متماشيا في ذلك مع العصر الذي نُشر فيه كتابك، هي بمعايير اليوم ليست من الأخلاق في شيء. ضرب الأزواج لزوجاتهم والزواج بصغيرات السن منهن ورجم النساء وجلد الرجال وقطع الأيدي هي من أخلاقيات كتابك المقدس بينما هي بمعايير اليوم إجراما شنيعا بل إن كثيرا من المسلمين أصبح يتوارى عن الحديث في ذلك ويختلق الأعداء لك وبعضهم يرفض تلك الأخلاق والممارسات بالجملة مرددا أنها نزلت لوقت غير وقتنا والبعض الآخر يصر على التمسك بها وتطبيقها كما نزلت في كتابك ليصبح متطرفا في نظر من حوله والعالم أجمع. شرار الناس هم من يمدون أيديهم لينهالوا ضربا على زوجاتهم الضعيفات حين يغضبون منهن في حين أن أتباعك لا يجدوا غضاظة في أن يضربوا زوجاتهم لأنك شرعت ذلك لهم في كتابك ولا يمنعهم سوى ضمانهم الحياة إن بقي فيها من أخلاق غير تلك التي يستقونها من كتابك. أرأيت يا رب كيف أن الأشرار بطبعهم يعملون الشر مثلما أن الأخيار بطبعهم يعملون الخير لكن ليعمل الأخيار شرا ويخالفوا طباعهم فهم يحتاجون الى تعليمات عليا .. الى نصوص مقدسة تأمرهم بذلك، يحتاجون الى دين، فالدين يأمرك أن تفعل ما يقال لك بغض النظر عن ما هو الصواب في حين أن الأخلاق ترشدك الى فعل الصواب بغض النظر عما يقال لك.

الذي يصدّق بكتاب يحكي عن كائنات خرافية تنتقل بين الأكوان وطيور ترمي الفيلة بحجارة من السماء وقمر ينشق الى نصفين وناقة تخرج من الصخر وعصي تتحول الى ثعابين أو من يتحدث مع الطيور والحيوانات والذي يُحيى الموتى أو يُلقى في نار لتكون بردا عليه .. من يصدق بذلك كله فلم لا يصدق حين يأمره نفس الكتاب بقتل الناس التي تخالف معتقده أو قطع أيديهم ورجمهم واستعبادهم. تقول له أن هناك كاننا غيبيا في السماء فيصدق ولو قلت له انتبه فالأرض رطبة أو دهان الحائط لم يجف بعد

لربما وجدته يحاول لمسها حتى يتأكد بنفسه. تصور لو أن سلسلة هاري بوتر أصبحت أجزاء مقدسة تتلى من فوق المنابر وتحفظ في الصدور وزعمت مؤلفتها أنها من عندك يا رب وصارت ديناً يعتنقه طائفة من الناس .. هذا بالضبط هو حالنا اليوم. لتصنع ديناً تحتاج إلى رجل التبس عليه الحال، به لوثة أو ربما مرض نفسي يدعي سماع أصوات غيبية حين يختلي بنفسه ثم تحتاج كاتب ذو خيال جامح يقوم بتفريغ كلام ذلك الرجل في كتاب ثم تحتاج إلى سلطة مستفيدة من توظيف هذا الكتاب تفرسه على الناس بالقوة وأخيراً تحتاج إلى جموع تسلّم عقولها إلى غيرها باسم ذلك الكتاب وزمن كفيل بتحويل تلك الخلطة إلى تاريخ مقدس.

مشكلة دينك يا رب هي التفكير .. يغفر أتباعك لمن يرتكب المعاصي بظنهم، لكنهم لا يغفرون لمن يتساءل فضلاً عن من يشكك أو يثير الأسئلة التي تجعل الناس تفكر في دينهم. أحد المحطات التي ساهمت في إفاقتي من الوهم الذي كنت أعيشه هو قراءتي لترجمات آيات القرآن بالإنجليزية .. فصلت تلك الترجمات تعلقي بالقرآن وروحانيته والذي أعاني عن رؤية ما تقوله الآيات حرفياً لأطالعها كما هي على حقيقتها. ربما هذا هو سبب ندرة المسلمين الجدد لا سيما من الدول التي تعتمد الفكر النقدي حيث أن زيادة أعداد المسلمين إنما هو لزيادة نسلهم وتكاثرهم فيورثون دينك لأبنائهم مثلما يورثون ممتلكاتهم وأسماء عائلاتهم. أذكر حادثة خسوف للقمر، كنت أطلع وقتها أحد أتباعك في التلفاز وهو يخوف الناس بك يا رب، ويطلب منهم أن يستغفروك ويخجلوا من أنفسهم ثم يدعوهم لأن يهرعوا للصلاة فهو ذاهب للمسجد الفلاني، من يريد مشاركتنا فليحلق بنا هناك فالحديث عظيم والناس غافلة. بعد دقائق يتصل ذلك الشخص على أحد المراكز الفلكية العلمية ليسأل أحد العلماء هناك متى سيخوفنا الله ويبدأ الخسوف كي نبدأ الصلاة! الناس يمارسون المنطق والتفكير العقلاني في حياتهم حين يتعلم أحدهم مهارة جديدة، حين يحل معادلة رياضية، حين يحسب كمية المخاطرة في مشروع ما أو حين يحاول إصلاح جهاز ما، لكن فجأة يهجره المنطق ويتركه العقل حين يفكر بالدين. لو قلت لأحد أن فلاناً يذهب لغرفة يجلس فيها ولا يتحدث مع أحد بل يخاطب فيها كائن خفي لقال عنه أنه مريض ومع ذلك فالناس عندنا يذهبون جميعاً لغرف كبيرة يدعونها مساجد ويتحدثون فيها مع كائن خفي وفي وقت واحد. العلم لا يدعي معرفة كل شيء كالدين، بل يبدأ بإثارة الأسئلة بدلاً من عرض الأجوبة ويعترف بالجهل قبل المعرفة ولا يمانع من تعديل الإجابات وتغيير التصورات لتصبح أكثر شمولية وأفضل دقة عندما تظهر أدلة جديدة ومعلومات أحدث. بالعلم نعرف أننا لا نعرف ونحاول أن نعرف ما لا نعرفه، بينما بالدين لا نعرف أننا لا نعرف ولا نحاول أن نعرف فكل شيء قد عرفناه.





## الصلاة

عزيزي الله،

لم أترك صلاة من صلواتك الخمس يوماً واحداً في حياتي منذ صغري بل كنت مداوماً عليها سفراً وحضراً أوديتها في أوقاتها ولا أتململ من ركوعها وسجودها .. قد يحصل أن أنام عن إحداها لكنني أبادر إلى قضائها فور تذكرها ونادراً ما يحدث ذلك. لم أكن أجد صعوبة في الإلتزام بمواقيتها وأدائها جماعة في بيتك، وما أكثر بيوتك في بلدي، لكن مع الكبر وتقدم العمر أصبحت أصليها في بيتي منفرداً. لا أظنك تعرف الكبر والتقدم في السن يا رب لأنك لم تجربته من قبل فأنت كما أنت وهكذا كنت .. على أية حال، قيل لنا أنها تساعد في ترتيب الوقت .. ألم يسمع من قال ذلك بشيء اسمه الساعة تحفظ الوقت بدقة أكثر من مواعيد الأذان. وقيل أنها تساهم في تقسيم الأعمال وضبط المشاوير بأوقات محددة عن طريق ربطها بأوقات الصلوات، يمكنني القول نفسه بالنسبة لأشياء أخرى كثيرة في يومي كالإستيقاظ صباحاً والمغادرة للعمل والذهاب إلى نادي في أوقات معينة. وقيل أنها تعلم الإنضباط لكن من ينظر إلى رجالك وهم يقفون حول بيوتك لعرف أنهم أبعد ما يكونوا عن ذلك، وقيل لنا أنها رياضة روحية وما هي برياضة بل إن برنامجاً في نادي صحي أتردد عليه مرة واحدة في اليوم وليس خمس مرات هو أفضل منها وأنفع للبدن. لكن الروحانية فيها هي بيت القصيد، كيف لا وهي وسيلة المناجاة بيننا وبينك .. هي العهد الذي بين أتباعك وبين غيرهم، هي عمود دينهم وهي ما يبقى أحدهم متعلقاً به. يعلق عليها رجالك طموحهم وآمالهم ويعلون من شأنها فوق أي شعيرة أخرى لأنها هي ما يشد الناس دوماً تجاهك ويربطهم بحبل مودتك ويبقيهم في محراب طاعتك بشكل يومي ومتكرر لا سيما وأنها تؤدي في العلن كي يزداد التصاق الناس بدينك حين يرون أنفسهم يقومون بها، يراقبون بعضهم البعض نيابة عنك ليشهدوا المتخلف منهم يأخذوا على يد المتهاون بها ويغلقوا المناجر من أجلها ويسوقوا الناس إليها، بل ويوشكوا أن يشعلوا النار في بيوت من لم يحضر إليها ... فعلا العهد الذي بيننا هو الصلاة. قيل عن الصلاة إنها وقت مستقطع يصفو فيها القلب ويهدأ فيها الجسم وتحلق فيها النفس في رحابك .. هي من أعلى أنواع العبادة درجة وأقربها لك لأن بها تواصل مباشر معك يا رب كما أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما يزعج رجالك. لكن ما بال هذا التواصل الذي هيأ صاحبه ليكون نقياً تقياً صافي السريرة ما يكاد يخرج من بيتك حتى يتغير وينقلب على عقبيه .. أين تلك الروحانية والمعاني الأخلاقية، أهي أنية لحظية في وقت أدائها ببيتك أم متعدية لأوقات اليوم كله؟ ما بال ذلك الشعور الإنساني بالأخوة والمساواة بين المصلين ينتهي عند باب بيتك حين يهيمون بالخروج ويلتقون خارجاً، ما بال ذلك الإلتزام بموعد الحضور وتوقيته ينتهي في أول موعد خارج بيتك .. ما بال ذلك الإنضباط في الصفوف والجلوس أمام محرابك يتدهور حين يهيم المصلين بالخروج ويستخرجوا نعالهم المنتثررة عند بابك .. بل ما بال نفس أولئك المصلين حين يؤدون نفس الصلاة في دولة الكفر تتغير أخلاقهم هناك حين يغادرون بيتك بشكل مغاير لما هم عليه في دولتك؟ هل يختلف تأثير الصلاة بحسب المكان الذي تُصلى فيه، كيف يا رب يختلف تأثيرها في دولتك عن تلك التي في دولة لا تؤمن بكتابتك .. ألا تأمرهم بنفس المعاني وتمدهم بنفس الوصايا؟ هل الأنظمة والتشريعات التي تصنعها المجتمعات

الواعية على ضوء التجربة والدليل هي التي تصنع سلوك الناس وتضبطه أفضل من ضبط الدعاء والصلوات؟

أهميتها تنبع من كونها العبادة الوحيدة، هي والدعاء، التي تربط الإنسان بك يا رب بطريقة مباشرة ويظهر فيها ضعف الإنسان وتذلل لك في ركوعه وحين سجوده، يُمرغ راسه في الأرض مظهرا الخضوع والخنوع في أقصى مراسم الذل والهوان طالبا رضاك عنه حتى ولو لم يقترف شيئا يستوجب الرضاء سانلا عفوك حتى ولو كان طفلا صغيرا، كيف لا وهي مخ العبادة. هي ليست كالزكاة أو الصوم أو الحج فتلك طقوس يستشعر بها مؤديها تفاصيل الدين ومتطلباته ويمكنه أدائها دون أن يقتررب منك يا رب. كما أن ليس فيها مظاهر الخنوع والضعف بل ربما تحمل من مشاعر القوة والسطوة حين تعطي من مالك للآخرين أو تمشي وتتحرك لتطوف بيئتك أو تتوقف عن الأكل لتتغلب على رغباتك. لكن الدعاء في الصلاة إنما هو إظهار مشاعر الضعف والهوان وليس أي هوان، بل هو هوان مصطنع يتباكي فيه أتباعك ليفوزوا برضاك عنهم. أتقبل يا رب أن يتباكي أحد من أجلك؟.. ما الذي تشعر به وأنت ترى تلك الجموع وقد خرت رؤوسها للأرض رافعة مؤخراتها وهي تظهر هوانها وضعفها من أجلك؟ أتقبل أن يتملقونك وكانهم ماسحي الجوخ من أجل كسب رضاك والفوز بنعيمك الذي وعدتهم به؟ أم أن الغاية تبرر الوسيلة عندهم وعندك؟

أصبحت الصلاة عادة كغيرها من العادات المكتسبة لدرجة أنه لا يمكن أن يخطر ببالي أن أتساهل فيها فضلا عن أن أتركها بالمرة. أعرف من إذا تأخر عنها أصابه القلق والوسواس حتى يؤديها وربما وهو ذاهب الى أحد الملاهي الليلية متأبطا ذراع صديقه .. يبتهج أتباعك حين يسمعون بذلك ظنا منهم أن فلانا ما زال يحمل داخله شعلة الإيمان التي لم تنطفئ بينما الذي لم ينطفئ إنما هو النشاط الآلي الذي تعود عليه مرارا وتكرارا لا سيما إذا صاحبه التخويف والتقريع في صغره حتى أصبح كالمرريض بالوسواس القهري الذي لا يستطيع الفكك منه. أظن أحيانا أن من يقرر التوقف عن الصلاة بعد أن تخطى مرحلة الشباب يحتاج الى دواء أو جلسات علاجية كي يتقبل وضعه الجديد. أعرف من قد رباه أهله عليها مثل غيره من قرناه وعفوه إذا قصر في أدائها وكبر وأصبح اليوم بعد أن خرج من الصندوق الذي أسره فيه مجتمعه لا يؤمن بدين ومع ذلك هو يداوم عليها وكأنه لا يستطيع الفكك منها .. كل الذي تغير أنه أصبح يؤديها جملة، مرة واحدة في اليوم يسردها بدلا من مفرقة على خمس أوقات .. لم يستطع أن يتخلص من إدمانه الذي نشأه أهله عليه. لكني استطعت يا رب .. استطعت الفكك منها وأنا في خريف عمري، استطعت الفكك منها وأنا الذي كنت أظن أنه لن يأتي ذلك اليوم الذي أتوقف فيه عن الوقوف بين يديك لأركع لك وأسجد نحوك إلا إذا فقدت حياتي أو عقلي وهأنذا اليوم قد توقفت وما توقفت حياتي ولا فقدت شيئا من عقلي .. أعرف أن أتباعك سيقولون بل فقدت، لكن دعك عنهم فأنا أخبرُ بنفسي منهم.

لم ألاحظ أي تغيير وأنا الذي كنت أظن أن عقدة الذنب التي زرعتها من حولي في عقلي الباطن منذ الصغر ستطاردني لكني لم أحس شيئا من ذلك .. ربما لأنني كنت قد استويت وأصبحت جاهزا لأن أتخلى عن دين أتباعك بعد أن تيقنت أن الإنسان يولد فيه ولا يختاره، يرثه ويورثه، وبعد أن عايشته مساوئه وشروره وأزمة هويته التي لا يمكن أن تنسجم مع ظروف زمننا الحاضر فضلا عن مستقبلنا القادم وأخيرا بعد أن عرفت عن نظرية التطور ما لم أعرفه من قبل. بعد هذا كله، كان التوقف عن أداء الصلاة وتركها بالكلية أمرا هيبنا سهلا، بل وطبيعيًا ومتوقعا، لا يختلف في ذلك عن من قرر التوقف عن أداء التمارين في النادي الصحي، تعود شابا في الثاني وحكيما في الأول. بعد التوقف عن أدائها أصبحت أقرب للإنسان الحر الكامل وأدنى للفرد المستقل الذي يمتلك مصير نفسه وقرارها ومستقبلها .. أقرر كيف ومتى ومن أريد مناجاته أو الحديث بصمت معه، لينتهي عهد الإستحواذ على

العقول والتسلط على النفوس. تخلصت فيها من الخوف المتجذر والذي زرعه أتباعك من عصور الجهل والظلام وانعتقت من مشاعر الضعف والهوان وعقد الذنوب والمعاصي لأعود إنسانا سويا معافى أنظر للأخريين من المصابين بفيروس الدين بشفقة .. فعلا، العهد الذي بيننا هو الصلاة.

بالرغم من أن توقفي عن أداء صلواتك قد حررتني إلا أنه قيدي في سجن مجتمع لا يعترف بحق أفراده في اختيار ما يؤمنون به، إذ أني أعيش في بلد راعية دينك .. عانيت كثيرا في كنتم ما اعتقده ودينك يا رب كما تعرف ليس مجرد اعتقاد بل هو طقوس تؤدي وأفعال تُقدّم. لم أقطع تماما عن ورود بيوتك فصلاة الجمعة الأسبوعية ما زلت أؤديها لتعلقها بأخريين معي تعودوا مني الذهاب معهم، إلا أن أحدا من عائلتي الصغيرة والكبيرة لا يعرفوا عني سوى أنني أحد من عبادك المؤمنين الموحدين ولا يتوقعوا مني غير ذلك .. الدين يا رب هو نوع من الأمراض بل هو كالوباء الجماعي إذا تفشى يصيب الملايين وأعراضه الظاهرة البيئة الصلاة أما الخفية فهي الدعاء. كم أود أن أصرخ معلنا ما اعتقده .. ألم يعلن رسولك كتابك للناس بل وفرضه أتباعك بعد ذلك بالقوة والإفك كيف انتشر؟ لم لا تسمح لي يا رب أن أعلن ما أعتقد وبسلام مثل ما فعل رسولك في بداية ظهور دينك، هل كفار قريش أكثر تسامحا منك؟ لن أبشر بدين جديد ولن أشكل طائفة حولي نجتمع في دار أحدهم مثلما فعل رسولك ولن أسعى للسيطرة على عقل غيري وتملكه، بل سأعبر عن رفضي لما لا يقبله عقلي من دين حولي وحسب .. أتخاف مني يا رب .. أنا المخلوق الضعيف؟

أبهمك يا رب أن تعرف بأي رجل، يُمنى أو يُسرى، أدخل بها الحمام لقضاء حاجتي أو أن أترك بعض الشعر وأزيل آخر من على صفحة وجهي أو أن أكل بيمناي أو يسراي؟ أتشغلك نقاشاتنا عن المرأة .. ماذا تلبس وماذا تغطي وماذا تكشف من وجهها أو كفيها، كيف تلبس عباؤها، أهي على كنفها أم على رأسها؟ أتتصت لخطب مرديك يوم الجمعة .. أيعجبك شيء مما يقولون أم أنك مثل الحضور تنتظر الإنتهاء لتسعى في أمر آخر كأن تتأكد من نوع جوربي وأنها صفيقين لا تبين البشرة من تحتها حين أمسح عليهما استعدادا للصلاة لك؟ .. أتتابع فتاوى المتحدثين باسمك لتتأكد من مطابقتها لمراذك .. أنغضب حين تكتشف أحدهم يقول عنك ما لا تريد قوله .. أيزعجك حين استمع للحن يطربني أو أنغام تشجيني؟ أنت خالق الأكوان وصانع الأرواح ومدبر الكائنات يشغلك مخلوق ضعيف لا أجد كلمات تصف صغره في المكان والزمان يعيش على أمتنا الأرض التي لا تمثل نقطة من ملكوت كونك الفسيح الذي لا أعرف له حدودا ثم تأتي لتتظر بأي يد تناولت بها طعامي أو بأي رجل دخلت بها حمامي أو هل توقفت عن الأكل في شهر من السنة .. أيعقل هذا يا رب؟

تقودني يا رب رجلاي أحيانا لبيتك لا سيما أيام الجمع لأداء الصلاة .. لا يمكنني أن أتخلف عن ذلك بسبب عائلتي الصغيرة ومجمعي اللذان تعودوا ذلك مني. أفف مع غيري اليوم مكرها كما وقفت لعشرات السنين في بيتك حين لم تفتني صلاة يوما واحدا. كنت في البدء أتمتم بآياتك ثم توقفت تماما وأصبحت أمارس حركات الصلاة كالرجل الآلي أو الروبوت .. أستمع لخطبة صلاتك مرغما. توقفت عن ترديد الأدعية وقول آمين بل إنني توقفت عن قول آمين قبل أن أتخلي عن دينك بوقت طويل، طويل جدا .. لم أستسغ قديما أن أوّمن وراء الإمام حين يدعو بأصناف من العذاب يصيها على المخالف له. يقف رجلك أمام المأمومين وينظر لهم من علو فيما تُطرق رؤوسنا أسفل منه خاضعين ساكتين مذعنين مؤمنين .. كيف لا وهو المتحدث باسم رب العالمين، ثم يبدأ في كيل التهم وقذف عبارات التشفي ونشر آيات العذاب، يدعو على هذا ويسقه دين ذاك وينتقص من عقائد الآخرين ويطلب منك أن ترينا فيهم عجائب قدرتك وأن تتسل أيديهم وأن تجمد الدم في عروقهم وأن تيمم أطفالهم وأن ترمل نساءهم ثم يزعم بأنك رحمن رحيم. من ينظر إلينا يشعر وكأننا أحد الملل الباطنية أو من فرق الحشاشين التي يثيرها

منظر الدماء ويوججها وكأننا قنابل موقوتة تم شحنها وتنتظر مخالفا لها لتفجر نفسها فيه .. ثم بعد هذا يتساءل بعض أتباعك كيف يخرج منهم من يقتل نفسه في جمع ليُميت آخرين معه.

ألا يمكن أن يتوجه أحدهم الى بيتك يا رب لبصلي هناك ويقف بين يديك وهو يستمع للحن شاعري جميل أو لموسيقى هادئة تصدح بمشاعر إيجابية تفيض بالحب والسلام بدلا من سماع ملعونين أينما تفتقوا أو عتلّ بعد ذلك زنيم أو تبت يدا أبي لهب .. ماذا لو وضعت سماعات في أذني والإمام يقرأ لأنصت لسمفونية أو مقطوعة رومانسية بدلا من فقلنا لهم كونوا قردة خاسنين، أو أشنف أذني بسماع صوت فيروز النقي وهي تغني أعطني الناي بدلا من والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما .. أيغضبك ذلك يا رب؟ أنتزعج حين أستمع لإبداعات البشر بدلا من سماع كتابك يتلوه أحدهم في محرابك؟.. تصوّر أحدهم قضى عمره كله محافظا على صلاتك في بيتك يؤديها مع رجالك بانتظام، لم تفته صلاة واحدة ولم يتخلف عن أدائها جماعة لكنه يستمع وبدون معرفة من حوله الى صوت فيروز الملانكي وهي تسبح في عالم روحاني بدلا من عالم كتابك .. هل ينقص ذلك من أجره شيء يا رب؟ حسنا لنقل أنه لا يحمل أي سماع في أذنه لكنه لا يطبق بعض اختيارات الإمام في قراءته من كتابك فحين يأتي على آيات العذاب والسب واللعن التي لا تناسب ذائقته المرهفة الحس يتخيل صاحبنا صوت فيروز ويسبح مع أنغامها في عالمه الخاص بدلا من كلامك .. هو على هذه الحالة في كل صلواته، أيغضبك أيضا هذا يا رب؟

حسنا لنفرض الآن أن بجانبه آخر لصيق به ولم تفته صلاة مثل صاحبنا لكنه يغرق في سماع كلامك كله، منصت له بكل حواسه يستشعر آياته كلها وهي تتغلغل في وجدانه بما فيها آياتك عن العذاب والتخويف ونبذ الآخر وقتل المختلفين من غير دينك. يخرج من بيتك وعقله ممتلئ بتلك المشاعر السلبية والأحاسيس العدوانية لينعكس هذا على سلوكه الفظ وتعامله الجاف مع من حوله في بيته وعمله ومجتمعه لكنه وللحق يا رب هو مداوم على صلواتك محافظ عليها جماعة مثل صاحبه الآخر، لكنه يتلذذ بسماع كلامك حين يأتي على ذكر العذاب والشوي في النار والجر بالسلاسل واللعن والقتل والجلد والقطع وكأنه مريض يعاني من اضطراب المازوخية. من منهما يا رب أقرب لك وأعلى منزلة؟ أهو الذي يستمع إلى صوت فيروز ويستمتع بأحانها الشجية وهي تحلق به في روحانية النغم أم هو الذي يستمع الى آيات العذاب وترتعد فرائصه وهو يتخيل أهوال يوم القيامة والناس تساق الى محشرهم .. وهل تفرق معك يا رب؟ كلهم يقوم بأداء حركات الصلاة نفسها من ركوع وقيام وسجود .. لكن أحدهم نفسه رقيقة لطيفة يتمايل طربا وهو يستمتع بأحان فيروز وأخلاقه لبنة سمحة والآخر نفسه ترتعد خوفا من خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه وتعشق أذنه سماع آيات العذاب ويستمتع بها .. أي مجتمع ينتج من أفراد كالأول وآخرين كالثاني علما أنهم كلهم يؤمنون بك ويؤدون نفس الصلاة لكن المحتوى مختلف بعض الشيء؟

## أنا والمجتمع

عزيزي الله،

عشت حياتي لم أذق فيها قطرة واحدة من مادة كحولية ولم أمارس الجنس سوى مع زوجتي وملتزم أخلاقياً بحكم فطرتي الذاتية التي تحب الخير للمخلوقات حولي .. لا أقبل الضرر لهم مثلما لا أقبله لي، بل أحسب أنني لو اضطررت أن أختار بين أن أظلم أو أظلم لاخترت الثاني. كنت أظن أنني أمتنع عن ممارسة الجنس مع غير زوجتي بسببك .. لكنني اليوم وبعد أن تحررت من قبضة رجالك، تغيرت قناعاتي فأنا مثلاً لا أمارس الجنس مع غير زوجتي وفاء لها وتقديراً لمشاعرها .. أحترمها وأقدر العقد الذي بيني وبينها فهو عقد أرضي وليس صك من السماء كما يزعمون. لو وافقتُ هي طواعية وباختيارها على أن أمارس الجنس مع غيرها لربما فعلت، .. أقول لربما ومن دون إحساس بالذنب الذي تخلصت من عقده، فما لك يا رب ولا لرجالك دخل فيما بيني وبين زوجتي. أما امتناعي عن الخمر فلنتوقفي عن ذلك في زمن مبكر لكنني لن أحس بالذنب لو فعلته .. إحساسي بالذنب يأتي من شعوري بالإضرار بأخر وليس من عقدة يزرعها في آخر عنك.

أقرب ما لي هو دين أبو العلاء .. نبية العقل وأقصى اجتهاده أن يظنَّ ويحسدنا، أما اليقين فلا. أنا واحد من الذين قال فيهم اثنان أهل الأرض عاقل بلا دين له. ديني هو أن أفعل الخير من دون مقابل وغايتي هي أن أعيش حياتي بطولها وعرضها ما دام أن ليس هناك غيرها .. لا أعلق آمالي والامي وأحلامي على حياة غيبية في عالم آخر وراء حُجب لا أجد دليلاً عليها بل أحاول أن أصنع من حياتي الفانية أفضل ما أستطيع لي ولغيري وأستغل وقتي القصير في هذه الدنيا من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه وإضافة أقصى ما أستطيع من خير ومعرفة وحب وسلام لأسلمها لمن سيأتي بعدي أفضل مما وجدتها. أستخدم عقلي في ذلك ولا أسمح لأحد أن يستحوذ عليه أو يلوّثه .. أستمتع بما تقدمه لي دنياي من مباح ومفاتن وأتلدذ بها باعتدال من دون قيود وهمية وعقد يحكيها أهل الدين، نبراسي في ذلك أخلاقي التي أستقيها من علاقتي بالآخرين وتعايشي المشترك معهم وليس من كائن مختبئ في السماء. أتألم وأفرح، أسعد وأحزن، أرقص وأبكي .. أصلي لمن أشاء وكيفما أشاء وقتما أشاء .. أو من أن الموت هو مصير كل حي ونهايته المحتومة وعزائي حين أفقد أحداً من أحبائي أن ليس بأيدينا أن أتينا للدنيا كما ليس بأيدينا أن ننهي منها أو نتألم أثنائها .. كل ما ليس بيدي حيلة فيه فلست ملوماً عليه سواء بفقده أو عدم تغييره، لكن بيدي حق استخدام عقلي في الحكم على الأمور وأن أجدّ وأسعى في تحقيق العدل ورفع الظلم وإزالة المعاناة والألم .. الآن وليس غداً كما يحاول أن يشيع أهل الدين حين يرجئون تسوية المظالم ليوم تشخص فيه الأبصار.

تلك هي الحقيقة المرة التي يخشاها الناس .. من ينشد الحقيقة فعليه أن يقبل بحلها ومرها أما من ينشد الراحة فليجأ إلى الدين كي يخفف عنه مصائب الدنيا عبر خيالات ووعود تمنّيه بلقاء من فقد وتوضه عن النقص الذي يحياه فيسلو على أمل وأوهام، .. هو مثل من يتعاطى مادة مخدرة أو يلجأ للخمر أو الحشيش لينسى آلامه في دنياه ويعيش في عالم من الخيال. كلنا يا رب راضين بحالنا، وهل يسعنا غير ذلك .. أنا أرضى بما أنا فيه مثلما أن المتدين راض بما هو فيه .. هو ينسب رضاه لك ويجير ما يصيبه

لقضائك وقدرك الذي صنعه غيره وعرسه في عقله ثم استغل ذلك المستفيد من أتباعك الساسة والحكام ليوهموه بأن هناك محكمة أخرى في عالم آخر فيمررون له أنواعا من الظلم والمعاناة يرتكبوها بحقه ويتعايش المسكين معها في دنياه ويُرجئها لعالم غيبي مصطنع حيث تأخذ العدالة مجراها هناك بينما أشعر أنا بالرضا في قرارة نفسي لأنني أعني أن ليس بيدي تغيير ما ليس بيدي، لكنني أسعى جاهدا لتغيير ما يمكن وإزالة الظلم الذي أقدر عليه .. اليوم وليس غدا في الآخرة. رضاي عن يقين ورضا غيري يسري عليه الشك والريبة .. رضاي قد بلغ منتهاه أما رضا غيري فهو منقوص غير كامل .. هو رضا الضعيف الذي شاهد العنب ولم يظله أو حتى يحاول أن يصله فقال عنه لعله حامض أو لم ينضج. أنا يا رب راض تماما بحالي مثلما أن المتدين راض بحاله، لكنني أرفض أن يستغل أحد ضعفي أو فقدي لأحد أحبتي في رسم صورة متخيلة من عنده لم يقدم برهانا عليها مثل طفل صغير أخذت منه لعبته ثم بدأت في ترضيته بشيء وهمي. إما أن تعطيه شيئا حقيقيا يسلي نفسه أو دعه يبكي لتغسل الدموع أوجاعه.

عوّدت نفسي عدم التعلق بالأشياء والتعود على مفارقتها والهرب من الركون اليها وترك فسحة بيني وبين الناس أخلو فيها بنفسي مهما طال العهد بهم ولو كانوا من الأهل والأحباب والأصدقاء لأنني على يقين من مفارقتهم، لعل هذا يخفف عني مصاب فقدان من أحببت، ويجعلني أحرص أن لا أضيع أي فرصة أحيها معهم. أما الأشياء فهي تملكني بقدر ما أملكها فإن تعودت على فقدها ولو هي قابضة في حسابي البنكي لما راعني تفلّتها من بين يدي. عزائي أن ليس بيدي أن أتيت فلم أختار من أكون وكيف سأكون والى ماذا أنا كائن، فنحن الأحياء محكومون بالبيولوجيا .. من يؤمن ومن لا يؤمن، أتباعك ومخالفهم، كلهم تسري عليهم قوانين الحياة والممات. يختلفون بينهم في ما يتخيلونه من أفكار مجردة وغيبيات افتراضية صنعوها في عقولهم لكنهم يشتركون في سجن الحياة الواقعية وأتون عالم الشهادة الذي لا ينفك منه أحد. كلهم مربوط بحبل الحياة، تُطبق عليهم مشاعرهم في شكلها البدائي الخام وفوق هذا ترسب طبقات عليا من البيئة والثقافة المحلية واللغة والدين والمجتمع تسيرهم كل حسب موقعه في هذا العالم. يشتركون في الطبقة السفلى من البيولوجيا التي أنتجتهم ويختلفون في الطبقات العليا من بنائهم الفكري الذي أنتجوه .. هم متشابهون في ما ليس بيدهم شأن به، مختلفون فيما يملكون صنعه وتغييره.

يرفع أحدهم يديه ليناجيك ويحدثك، يُدلي لك بمكنون قلبه ليبقي معك على اتصال دائم وهو يسألك متى يا رب .. متى تحقق لي أمنيتي، متى تشفي مريضتي، متى تُزيل همي .. متى تستجيب دعائي .. لو قال أحد أتباعك هذا الكلام لما استنكر أحد عليه ذلك ولما احتج أو اعترض. لكنه لو استبدل كفيه المرفوعتين نحوك بهاتفه الجوال وأعاد نفس الكلام معك وهو يتحدث في جواله لقامت القيامة عليه ورُمي بالزندقة والهرطقة والخروج من الملة .. ما الفرق يا رب بين الحالتين مع أن الفعل واحد والكلام واحد؟ في الأولى هو طبيعي وفي الثانية هو مريض، في الأولى هو مؤمن صالح وفي الثانية هو زنديق ضال .. لأنه في الأولى يتواصل معك من طرف واحد فقط بدعاء أو صلاة أو مناجاة أما الثانية فتستدعي طرفين اثنين .. تستدعي تواصلك أنت أيضا معه مثلما هو معك. يستنكر الناس ذلك ويغضبون لو إدعى أحدهم أنك تتواصل معه وتحدثان سويا بل الويل له وكأنهم لا يريدون لك أن تظهر لأحد منهم .. هم يريدونك أن تبقى مختفيا عن الأنظار، منزويا مختبئا لا يبرز منك أي مظهر ولا تتواصل مع أي أحد سوى لقائك الأول القديم مع رسولك الذي بعثت معه بكتابك أما غيره وبعده فلا. لهذا السبب أنت مختفي .. لأن أتباعك يريدون ذلك لك ويخشون لو ظهرت وأزحت الستار عن طلعتك، لبان لهم شيئا لا يريدونه؟ أنت هكذا بالنسبة لنا كمن يتحدث في هاتفه مع طرف آخر وهاتفه مقطوع عن الخدمة،

وهو يعرف أنه مقطوع عن الخدمة، ويريده أن يبقى مقطوعا عن الخدمة .. ومع ذلك يأمل أن يسمع الطرف الآخر كلامه.

أنا اليوم مثل رسولك في بداية ظهور دينك حين كان يختبئ عن الناس قبل أربعة عشر قرنا بل إن وضع رسولك وحالته الاجتماعية أفضل مني فاخترته المؤقت إنما هو لرسالة صادمة يريد البوح بها لغيره ودعوة بنوي أن يصحح بها بينما ليس لدي شيء أخفيه أو رسالة أدعوا لها أو دعوة أنوي نشرها ومع ذلك فأنا مختبئ مثله. ذنبي أنني لا أريد أن أشارك الناس حولي إيمانهم بشيء غيبي رسخ في رؤوسهم بينما رسولك كان يريد من الناس حوله أن يؤمنوا بشيء غيبي رسخ في رأسه هو فقط. قل لي الآن يا رب من أكثر خطرا على من حوله .. رسولك الذي فاجأ غيره بفكرة قام بنشرها سلما ثم فرضها لاحقا، أم أنا الذي اكتشف عقلي أن ما يؤمن به غيري لا يتفق مع منطقي فامتنعت عن الإيمان بها؟ قل لي بربك يا رب، ودع عنك التباس عبارتي السابقة التي تقولك باسم من هو ربك فقد اعتدنا هذا النوع من العبارات بينما .. قل لي هل أنا أكثر خطرا وتهديدا للسلم الاجتماعي على من حولي حين أتوقف عن تصديق ما لا يقبله عقلي أم رسولك حين بدأ بنشر فكرة خارجة عن المعهود الذي تعودته الناس وأدخل شيئا غيبيا في رؤوسهم من دون دليل أو برهان سوى كلام يرويه هو عنك ويدعوه قرانا من عندك؟ قل لي من أكثر تسامحا وتقبلا للآخر، أهم كفار قريش الذين سفه رسولك آلهتهم وألب ضعفائهم عليهم وجمع الناس حواليه، أم رجالك وأتباعك اليوم حين يدرون عني؟ من أكثر تعايشا مع الآخر أهو أبو جهل وأبو لهب في علاقتهم برسولك الذي كفر بالهتهم ولعن رجالاتهم أم أتباعك اليوم معي، أنا الذي اقتربت خطيئة رفضي لما يرفضه عقلي وما يحاول أن يلزمني به المؤمنون من أتباعك المحيطين بي؟ أليس وضعي اليوم بعد أربعة عشر قرنا من نشر كتابك أسوأ من وضع رسولك وهو مختبئ في دار الأرقم؟

لا تخش مني ومن أمثالي شيئا يا رب .. فأعداد المؤمنين بك في تزايد. هم يفرحون ببعضهم البعض أكثر مما يفرح الملحدون بنظرانهم لأن المؤمنين يحتاجون دوما لمن يؤكد لهم حالة الوهم التي يعيشونها كي يطمئنوا الى وضعهم وإلى الشعور بالانتماء الى طائفة الغارقين في الأوهام والخيال. ألا ترى الى كم التعابير العفوية المستقاة من عندك ولك والتي يستخدمها المؤمن في يومه كي يربط بها غيره معه في دوامة الوهم التي نسجها حوله كي لا يفلت منها أحد .. يستح بك حين يرى جديدا وبيبارك حين يسمع خبرا جميلا ويحوقل حين يتلقف خبرا سيئا ويشمت حين يسمع عطسا ويدندن بورد حين يصبح ويمسي وحين يدخل منزلا أو يركب سيارة بل ويتلفظ بكلام من عندك حين يريد أن ينام مع زوجته أو ربما صديقته بل إنني أعرف من لا يؤمن بك ويمارس ذلك لا شعوريا بعد أن تعود عليه. أما من لا يؤمن بك يا رب فليس بحاجة الى من يعزز لديه ذلك الإقتناع الذي توصل له بنفسه أو يؤيده فيه أو يوافق عليه .. هو ليس بحاجة الى نسج شبكة من الأوهام ليقع فيها غيره ولا ليوحي لنفسه بما ليس فيه ولا ليكسب مؤيدين لفكرته كي يطمئن لها ويرتاح. يكفيه ما هداه اليه عقله بنفسه الخالصة من دون تأثير ورهبة وخوف من الآخرين وما توصل اليه بعد شك طويل وتردد .. لعله هو المؤمن الحق يا رب!

أشاهد بعضا ممن يشكك في دينك بل ويسخر منه مثلما يسخر أتباعك من الديانات التي تختلف عنهم، لكن مشاهدتي لما يقوله الذي يشكك في دينك لا يعزز من قناعاتي أو يدعمها أو يؤكد لها ولا يجعلني أطمئن أكثر لما أعتقد .. قد أفرح لهم وأسعد بأنهم ينطقون بما يؤمنون به حقا دون خوف من أحد ويمثلون وجها حرا من المجتمع ينذر مشاهدته كما أضحك من حديثهم عن دينك لكنني أضحك أكثر من حديث أتباعك عن أديان الآخرين. أتدري يا رب أن أكثر البرامج كوميدية هي برامج الفتاوى التي يصدرها رجالك الأوفياء وأحرص كثيرا على مشاهدتها .. هي ضرب من الكوميديا السوداء وأظنها

أحد الأسباب التي جعلتني أعيد النظر في دينك قبل أن أتعرّف على نظرية التطور. بل إن من المفارقات أن من أتباعك من يسخر من برامج الفتاوى إذا صدرت من رجل لا ينتسب لمدرستهم .. هي كوميديا إذا كان المتصدر لها ليس محسوبا عليهم ودينا اذا كان صاحبها من طرفهم.

مشكلتي مع دينك يا رب هو أنه مؤسسة رسمية وليس شيئا فرديا .. هل كنت تقصد ذلك يا رب؟ أعرف أن أتباعك يقولون عنك إن حياتي ومماتي لله .. حسنا ليكن ذلك، لكن ما دخلي أنا في طريقة حياة فلان ومماته التي نذرها لتكون لكائن غيبي، لم يلزمني بأن أقلده في ذلك وأن أعيش حياتي مثلما يعيشها هو؟ ألا يمكن أن يكون دينك في محيط الفرد الشخصي؟ في نسخته المكينة بدى كتابك وكأنه يتحدث لقارئه كفرد مستقل، منفصل عن مجتمعه لكن حين ظهر في نسخته المدنية بعد أن قويت شوكة أتباعه وزاد معتنقيه وكثرت موارده صار يتحدث للقارئ الذي يعيش داخل مؤسسة حاكمة يسيطر عليها أتباعك .. يقيس له علاقاته ويضبط له حركاته ويقرر له كيف يأكل وكيف يلبس وكيف يعيش. هناك من يتحدثون باسمك في كل شأن من شؤون الحياة والناس تصغي لهم، فهم الموقعون عنك وباسمك حتى حين يريد أحدهم أن يفصل ثوبا يطلّ عليه أحد أتباعك ليقرر كم سننمترا يترك فوق كعب رجله والإ صار لابسه في النار .. في المجتمعات التي انعتقت من تلك المعضلة ووعت خطرها، أبقت على الدين في محيط الفرد الشخصي، مثله في ذلك مثل لونه المفضل أو ناديه الذي يتابعه، وأحاطت أذرة الدين بسياج لا يتعداه عن معبدك فلا يستمد الكاهن أي سطوة خارج جدران الكنيسة. حين تقرر تلك المجتمعات أمرا تلجأ للعقل والمنطق والعلم القائم على الدليل والبرهان والتجربة ولا تسمح لأحد مهما ارتدى من لبوس الدين أن يخلط معتقداته الغيبية بأمورهم المعيشية فضلا عن أن يلزمهم بها.

لو أفصحت عن رفضي لما يعقده غيري مما لا يقبله عقلي من أمور الغيب كأن لو توقفت عن التصديق بكاننات غير مرئية تطير في السماء وتراقب من في الأرض لتسجل عليهم أعمالهم ويسميها أتباعك ملائكة أو كاننات تعيش تحت الأرض وفي الخراب يدعونها بالجن وتلبس بالبشر أو أن القمر الذي نراه قد انشق فلفتين قبل قرون قليلة، لو أفصحت عن رفضي لمثل ذلك لطلقت مني زوجتي وتبرأت مني عائلتي ولفصلت من عملي ولتشوّهت سمعتي ولوحقت من قبل أتباعك، .. وبعد هذا كله يأتي أحدهم ليقرأ من كتابك لكم دينكم ولي دين! ثم لو قدموني للمحاكمة في دولة خادمة بيتك لفقدت حياتي إذ سيقرر القاضي إعدامي بحكم الردة الذي جاء به رسولك وفي أفضل الأحوال سأقبع في السجن سنين حتى ينساني المجتمع أو ربما يثير أحدهم قضيتي لتصل الى جماعات لا تدين بدينك وتهتم بالإنسان وكرامته لتضغط على دولة دينك كي تُفرج عني أو تُبقي على حياتي التي هي في نظر أتباعك خطر يتهدد دينهم الهش. كل هذا لأنني لم أقتنع بفكرة غيبية تعيش في رأس أحدهم، وفي المقابل لو عبرت عن عدم تصديقي بأن الأرض تدور أو أن الأرض مسطحة وليست كروية لما اهتم أحد بي ولما ألقى لي بالا بل لربما احتفى بعض أتباعك بي ورفعوني منزلة. نكراني للحقيقة لا يغيّر شيئا منها لكن نكراني لفكرة غيبية يغيّر كل شيء بالنسبة لأتباعك .. هو يشوّس على الواهيمين المتعلقين بها ويُذكي شعلة التفكير في عقل المفكر والمشكك والمتعطش للحقيقة. أي دين ذاك الذي يحكم بقطع رقبته لو أنكرت ملائكة تطير في الهواء أو جنّا يعيش في الأرض أو انشقاق قمر في السماء ويدعك لو صدقت خبر بابا نويل وهو يجر مزلاجته في الهواء أو أن أشباحا وعراريت تعيش في الأرض أو ثور يحمل الأرض فوق قرنيه؟ .. إنه دينك يا رب.

مرّ علي زمن في صغري كنت أنتشوق فيه للعودة الى زمن رسولك حين نشر كتابك لأول مرة كي أستمتع بصحبته والنيل من عطائه والتعرف على أصحابه وأكثر ما كنت أحس ذلك حين أخرج من درس يلقيه أحد أتباعك المخلصين بعد أن يرسم لنا لوحة عجن ألوانها بروحانية ذاك الزمن وأزال منها الشوائب وما علق بها من منغصات وشبهات كتلك الصور التي نراها اليوم معلقة في المتاحف ونحن



مندھشين من جمالها. كبرث بعدها وكبرث معي التساؤلات بعد أن قرأت ووعيت واستقلت وصرت أتمنى العودة لزمن رسولك، لا لأمتع عيني بالنظر اليه، بل لأتيقن من صدقه وادعائه وهل تلك الصورة التي رسمها أتباعك في ذهني هي أقرب للصور الفوتوغرافية التي تعكس الحقيقة أم هي لوحة زيتية صنعتها أيديهم بألوان عجنوها في خلطة منقحة مختارة مُصفاة من روى فلان عن فلان. أما اليوم فأصبحت لا أحتاج الى العودة الى الورا لأتيقن من صدق العصر الأول الذي انتشر فيه كتابك، تيقنت الآن كم كنت ساذجا وأن لا داع لذلك فالصورة غدت واضحة جلية بالنسبة لي ولا تستحق شوق السفر عبر الزمن. يكفي أن أتخيل رسولك يظهر اليوم ومعه كتابك يُبشر به بعد أن نزعث عنه كل الرواسب التي زرعتها أتباعك في عقلي وأزلت عنه كل القداسة التي غلفوا رأسي بها. يكفي أن أتخيل كتابك بتجرد كأي كتاب آخر وهو يُطبع اليوم لأول مرة فأشترته من أحد المكتبات أو أحمله عن طريق الإنترنت لأحدد موقعي منه ومما يحتويه من سطور الأحكام والحدود والعقوبات وأحوال الجنة والنار وأحوال يوم القيامة والبعث وقصص الأولين وورده على المخالفين .. أحسب أن أي أحد يستطيع القيام بتلك التجربة الفكرية لو تخلص من الخوف المترسب في أعماقه وكسر حاجز الوهم الذي نسجه حوله أتباعك.

كم هو مُحبط أن تعيش بين أناس تصطنع العيش مع أو هامهم وتخشى أن تعلن عن رفضك لما لا يقبله عقلك مما يؤمنون به من أمور غيبية والأدهى والأمر هو أن تخضع لتدخل تلك الغيبيات في شؤون حياتك كلها من دون نقاش أو حتى تساؤل وإلا وصموك بالخيانة والردة. توقفت عن أداء الصلاة في بيتي وأنا اليوم أنتظر ردة فعل زوجتي المحافظة على دينك كغيرها من بنات أتباعك .. هي تداوم على إيقاظ أبنائي من أجلك وتدعوهم للصلاة من أجلك. تلثني عينايا بعينها حين يرفع مؤذك نداء الصلاة .. لست أدري ما الذي سافعله لو سألتني علامك لا تصلي، وبأي طريقة سأجواب وعن أي حل سأبحث بعد أن كانت تراني لعشرات السنين مداوما على السجود لك وقراءة آياتك ومد يدي نحوك؟ أتحسبها يا رب ستطلب مني الطلاق وكلانا نحب بعض، هي تعرف من دينها أن العهد الذي بيننا هو الصلاة فمن تركها فقد كفر بما جاء به أتباعك .. أتراها تحبك أكثر مني يا رب؟ لا يخيفني ذلك بقدر ما يخيفني فقدانها للأمل المزعم الذي زرعه في عقلها أتباعك منذ صغرها .. هي ما فتئت تتحدث عن أن الودع هناك بدارك الآخرة وتُمني نفسها بذلك لا سيما حين ترى حلماً في دنياها لم يتحقق أو حقا لم يسترد.

تحررت من نسيج الوهم الذي أحاطني به دين أتباعك دون أن أثير الشكوك حولي إذ لم يتغير شيء في طبيعة معاملتي تجاه زوجتي وأبنائي سوى أن زاد حرصي على أن أوفر لهم أفضل ما أستطيع وأقضي معهم أسعد ما يمكنني توفيره من وقت فليس لي فرصة أكثر يقيناً من هذي التي أعيشها الآن وأعرفها حق المعرفة لكنني لست أدري كيف ستتصرف زوجتي لو عرفت ذلك عني. هي لا تبدو جاهزة بعد للإستيقاظ من الوهم الذي تعيشه مع أتباعك .. كم أشفق عليها يا رب حين أتخيلها وهي تعرف ما أعرفه عن نفسي. أظن أحيانا أنها تشك في حالي لا سيما وهي ترى مني جانبا إنسانيا مرهفا يطغى على آرائي وينتقد كثيرا موقف الدين المتشدد وليس أهله فقط ويثير أسئلة عن الحسد والعين وتلبس الجن بالأنس وباقي الأمور التي تتمسك بها حرفيا. ربما هي لا تسألني عن سبب توقفي عن الصلاة لك كما اعتدت حتى لا تفتح بابا في مهب الريح يصعب إغلاقه وتفضّل أن يكون ذلك كسلا مني. لكن في نفس الوقت، أظن أنها تعرف أن الكسل أيضا سبب غير وجيه لا سيما لمن كان في ماضي أيامه مخلصا في طاعتك .. أه، لو عرفت ما أعتقده، لربما تكدر خاطرها وهي تحسب أن مصيري سيكون في جحيمك حسب تصورها بينما هي تسعى وتكد من أجل جنتك. لا يمكن أن أتخيل زوجتي تتخلي عن إيمانها العميق بك بعد كل هذه السنين، ولا ولن أطلب منها ذلك .. كل ما أرجوه هو أن ترضى بما أَرْضاه لنفسي إذا عرفت ما أعرفه لكن كيف وهذا سيكون سببا لمعاناتها .. كم يمزق قلبي وأنا أتخيلها تفكر

في مصيري ومصيرها بعد فراق دنيانا وبعد تلك السنين التي عشناها سويا. أرأيت يا رب كيف أن فكرة غيبية تفرق بين الأحياء وتزرع الشقاء بينهم .. ألا يكفيهم عناء الدنيا التي يحيونها؟

ألا يمكن يا رب أن نعيش كزوجين سعيدين كما كنا من قبل؟ هل اعتناق أحدهم دينك يستلزم مقاطعة صاحبه الذي لا يؤمن بدينك وهل يكون دينك سببا للفرقة بين المرء وزوجه وأحبائه؟ أليس هناك من ذهب أكثر من ذلك ووصل به الحال الى أن قتل من قتل من أهله وإخوانه وأبائه بسبب دينك الذي ارتضيته لعبادك؟ ينقل أتباعك أن هناك من أصحاب رسولك المقربين من قتل أبوه لأنه لا يؤمن بدينك ويجلّون ذلك الفعل الذي في نظرهم هو أعلى قيم البراء من الكفر وأهله وأسمى آيات الولاء والمحبة التي يدعو لها دينك حين يأمر أتباعه بأن تكون محبتهم لرجل عاش قبل أربعة عشر قرنا أكثر من محبتهم لأهلهم وحتى أنفسهم. أيرضيك يا رب أن يقتل أحدا أباه بسببك؟ أتقبل أن يلتقي ابن بأبيه في ساحة القتال ثم يضرب أحدهما عنق الآخر لأن أحدهما يعتنق دينا غير الآخر؟ أي جنون هذا، بل أي جنون يعترى الإنسان حين يعتقد أن هذا هو دين منزل من عندك؟ اليوم نرى من يفعل شيئا من ذلك في دولة الخلافة المزعومة بل وحتى في دولة خادمة دينك لكن لا يجروا أتباعك على تبرير فعلهم كما فعل السابقون بل يتم تجريمهم والأخذ على يديهم. كيف تريد مني يا رب أن أحب رجلا لم أقابله ولا أعرفه ولم يسبق لي ان التقيته، عاش قبل الف وأربعمئة عام تقريبا ولا تربطني به أي صلة .. تريد مني أن أحبه أكثر من أمي وأبي وابني وابنتي وزوجتي بل ونفسي كي أثبت لك أنني مؤمن بدينك؟ أفهم تعلق بعض الناس ببعض الشخصيات سواء التاريخية منها أو المعاصرة وإعجابهم بصفات من يتابعون لكن أن يُطلب من أحد أن يحب شخصا أكثر من أهله ونفسه كي يثبت تعلقه بما يقوله ذاك الشخص بغض النظر عما يقول حتى ولو كان لا يقبله العقل والمنطق .. لهو مثال على الهوس والمرض.

## الخاتمة

عزيزي الله،

تابعت كتابات الفلاسفة والمنطقيين عنك باللغتين التي أجيدهما وقرأت عنك الكثير مما كتبه أتباعك وما خطه مريدك وناكريك على السواء وسمعت الكثير من مثل هل تستطيع أن تصنع صخرة لا تستطيع حملها أو مكانا لا يسعك ويحويك حتى ضعف نظري وكلّ جسدي من كثرة المطالعة .. بحثت عنك في كتابات الكاتبيين وفي أقوال المتحدثين وفي أشعار المتصوفين وفي أنات المعذبين وفي آهات المحبين وتوصلت الى أن رغبة الإنسان في أن يكون الشيء حقيقي لا يجعل منه حقيقة سوى في عقل صاحبه، وأن الكثير لا يريد معرفة الحقيقة لأنه لا يريد لأوهامه أن تزول. الناس يخافون منك يا رب لكنهم يخافون من عدم وجودك أكثر .. هم يطأطؤون رؤوسهم لك خشية من كاميرات المراقبة التي سلطتها عليهم ولا يريدون لها أن تنطفئ وإلا لتخيلوا أنفسهم وقد تحولوا الى وحوش كاسرة. هو نوع بدائي من عملية الرصد والضبط يحكم تصرفاتهم حين غادروا كهوفهم لأول مرة ليستقروا في مستوطناتهم الأولى. أليس من يفعل الخير اليوم من دون تخويف أو انتظار مكافأة أكثر نبلا وإنسانية من أولئك الذين يستشعرون كاميرات المراقبة وهي ترصدهم في تحركاتهم وسكناتهم؟

عزيزي الله،

لست أدري عنك لكني سعدت بالحديث معك .. وللوقت الذي استقطعتة من جدولك الإلهي المشغول والمليء بالمهام العظيمة لتمنحني أنا المخلوق الضعيف هذه الفرصة القصيرة لأردّ على كتابك الذي بعثت به لنا قبل أربعة عشر قرنا .. أرجو أن يكون هذا الشعور متبادلا، وأن لا ينقطع التواصل بيننا. لا أفهم ما تكون يا رب ولا يخيفني ذلك كما أنه لا يفرحني .. كنت أود أن أعرف عنك لكنك لم تمنحني تلك الفرصة ولم ترح اللثام عن وجودك. الشيء الأكيد الذي أعتقده من دون أدنى شك وريبة هو أن الديانات إنما هي من صنع البشر، لا دخل لك بها يا رب لا من قريب ولا من بعيد .. وكل الكتب التي يقال عنها سماوية هي أرضية ولا يمكن أن تكون الا من صنع البشر .. أما أنت فأمر آخر، لا أعرف ما تكون. أعرف أنك اله الفراغات والمتناقضات، اله المستضعفين والمعتذرين وشماعة يعلق عليها الناس مآلاتهم وأحلامهم ورجباتهم وفي النهاية أنت حامل، لم تتدخل يوما في مساعدة الخلق بل تركتهم يعانون من تعب الدنيا وهم يظنون بك ظن الخير.

قد أغبر رأيي يوما عنك .. قد أو من بك أو لا أو من .. قد أصدق أن هناك قوى خفية خارج هذا العالم أو لا أصدق .. قد يتبين لي شيئا عنك لم أتبينه من قبل .. قد أفهم شيئا عن عالمنا يلقي الضوء على من تكون أو من لا تكون، لست أدري .. لكن الأكيد عندي أن الأديان ليست من عندك. إن نفيي لمبدأ أن الدين من عندك ورفض فكرة النبوة والوحي وأن هناك بشرا اصطفتيهم في زمن قديم ليتواصلوا معك لا يعني عدم الإيمان بك أو الكفر بوجودك .. فهناك من هو مؤمن قبل ظهور الأديان أصلا كما أن هناك من هو مؤمن اليوم وهو بلا دين. إن ظنّ أحدهم أن هناك الها فيسكون وإن ظنّ أن ليس هناك إله فلن يكون، فنحن لا نرى العالم كما هو بل كما نحن، .. لكن ما دخلي أنا بذلك كله؟

هذا جزء من ما أردت قوله لك يا رب وهناك جزء آخر لم أقله لكنك تعرفه .. ألسنت تعلم ما تخفي الأنفس وما تضمّر الصدور؟